د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

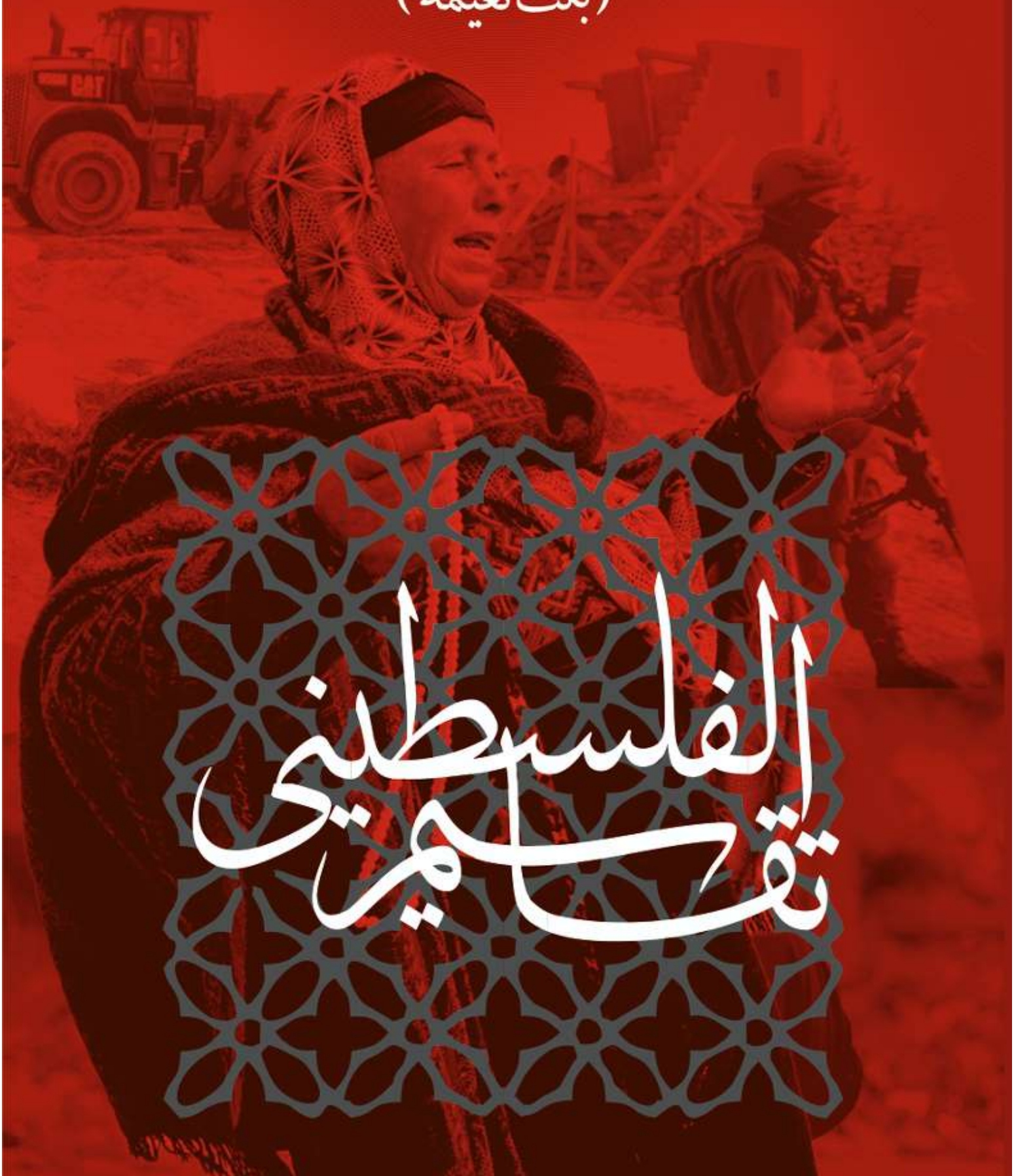

تقاسيم الفلسطيني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقاسيم الفلسطينيّ

مجموعة قصصيّة

د. سناء شعلان (بنت نعيمة)

شناسنامه:

عنوان:
نوبت چاپ:
تیراژ:
مشخصات نشر:
موضوع:
صفحه آرایی:

فهرست

إهداء	١١
تقاسيم الوطن	**١٣**
أشجار	١٤
أقدام	١٤
إصابة هدف	١٥
اغتصاب	١٥
التّوائم الأربعة	١٦
الأمّ	١٧
الأرجوحة	١٨
المؤذّن	١٩
المحرقة	٢٠
المعجزة	٢١
تِيه	٢٢
تواريخ	٢٢
ثوب زفاف	٢٣
حفّار قبور	٢٤
القزم	٢٤
الكنعانيّ	٢٥
خائن	٢٦
حليب سباع	٢٦
جَنين	٢٧
رحيل	٢٨
تعويض	٢٩
حَشْر	٢٩
عُقْم	٢٩
كنيسة	٣٠
دواء	٣١
رجال	٣٢
نضال	٣٢
حالة خاصّة	٣٢
ابن أمّه	٣٣

فهرست

ابتسامة	٣٤
جبال	٣٤
خيانة	٣٥
خُطبة	٣٦
زَرْع	٣٧
زهايمر	٣٧
بنطال العيد	٣٨
حَجَر	٣٨
زيتون	٣٩
شجرة	٣٩
الوليد	٤٠
صَمَمْ	٤١
القائد	٤٢
إسعاف	٤٣
أُخوة	٤٣
أُبوّة	٤٤
شجرة عائلة	٤٤
شهيد	٤٥
عروس البحر	٤٦
جدار	٤٧
خُرّافيّة	٤٧
عانس	٤٨
قُرعة	٤٩
قصّة حبّ	٥٠
قدمان	٥٠
فيلم خياليّ	٥١
عيد أمّ	٥١
لُهاث	٥٢
مدرسة	٥٣
وجه	٥٤
نفق	٥٤

فهرست

نوم ٥٥
هديّة ٥٥
هروب ٥٦
مقبرة ٥٧
معطف ٥٧
صحفيّ ٥٨
صديق ٥٩
الكُوفيّة ٥٩
معبر ٦٠
عِرْض ٦١
صحراء ٦١
معرض لوحات ٦٢
بيت ٦٢
جملة واحدة ٦٣
مسجد ٦٣
تضامن ٦٣
لثام ٦٤
انتظار ٦٤
بحر أسود ٦٥
هواية ٦٥
وليّ ٦٦
خيال الظّلّ ٦٩
العيد ٧٠

تقاسيم المعتقل **٧٣**
آمال ٧٤
الأسير الرّضيع ٧٤
إضراب ٧٥
القصيدة ٧٦
دموع ٧٦
سجين ٧٧
حليب ٧٧

فهرست

أسير	٧٨
عيد ميلاد	٧٩
عُرِيّ	٧٩
قلب	٨٠
نُطفة	٨١
تقاسيم المخيّم	**٨٥**
الدّرب	٨٦
تلّ الزّعتر	٨٦
حنظلة	٨٧
صور	٨٧
دجاجة	٨٨
رَكْض	٨٩
الحلوة	٩٠
عائشة ألوان	٩٠
فلسطينيّ	٩١
فَخَار	٩٢
المخيّم	٩٢
(كرت)المؤن	٩٣
عقوبة	٩٤
كماليّات	٩٥
كمان	٩٦
نهر البارد	٩٧
تقاسيم الشّتات	**٩٩**
إقامة	١٠٠
البحر	١٠٠
الصّفعة	١٠١
الرّسام	١٠٢
سمكة	١٠٣
مقايضة	١٠٣
حذاء أبيض	١٠٤

فهرست

أجيرة ١٠٤
ابن شهيد ١٠٥
خيمة ١٠٦
قارورة ١٠٦
خَرَف ١٠٧
صوت ١٠٧
الصّبي المحظوظ ١٠٨
طابور ١٠٨
رسائل شوق ١٠٩
طيران ١٠٩
قطارات ١١٠
غداء ١١١
ولادة متعسّرة ١١٢
موت ١١٢
قلادة ١١٢
مطار ١١٣
قرش ١١٤
بُقجة ١١٤

تقاسيم العرب **١١٧**

وحش ١١٨
دعم ١١٨
دماء ١١٩
منهاج جديد ١١٩
صهاينة ١٢٠
شرف ١٢١
عروبة ١٢١
جنديّ ١٢٢
مظاهرة ١٢٢
لطيم ١٢٣

تقاسيم العدوّ **١٢٧**

فهرست

زوجة سارق ١٢٨
صمت ١٢٨
أغنية عربيّة ١٢٩
السّوط ١٣٠
ثوب ١٣٠
لصّ ١٣١
رأفة ١٣٢
خديعة ١٣٣
رجل ١٣٣
آر.بي.جي ١٣٤
شارون ١٣٥
عَبْد ١٣٥
كتاب ١٣٦
متحف ١٣٦
هواية ١٣٧
وسام ١٣٧
خُرافة ١٣٨
نسيان ١٣٨
نبتة عطريّة ١٣٩
طالب ١٤٠
أوزون ١٤١

تقاسيم البعث **١٤٣**
تمثال ١٤٤
الرّيح والكلاب ١٤٤
المنجل ١٤٥
وحام ١٤٥
القيامة ١٤٥

إهداء

إلى أمّي الفلسطينيّة العاصمة الأبديّة لقلبي التي علّمتني معنى الصّبر والصّمود والعطاء والشّجاعة؛ إلى أمّي (نعيمة المشايخ) رحمها الله تعالى، وأحسن مثواها. الفاتحة على روحها الطّاهرة

١

تقاسيم الوطن

أشجار

قالتْ عصابات الصّهاينة التي اجتاحتْ القرى الفلسطينيّة،فأعملتْ فيها الذّبح والبارود والإذلال والتّنكيل والاغتصاب والتّهجير والنّهب والتّدمير:»إنّ الأهالي الفلسطينيين هم من هاجموا أفرادها،وقتلوا جنودها،ودقّوا طبول الحرب».

العالم كلّه صّدق تلك العصابات الكاذبة الآثمة لأنّه كان لزاماً عليهم أن يصدّقوهم،ثم أفاضوا عليهم بعونهم وشفقتهم ودعمهم.

وحدها أشجار الزّيتون والتّين والبرتقال والرّمان والعنب من تحفظ وجوه رجال العصابات الصّهاينة وهم يتسلّلون عبرها قادمين من البعيد حيث البرد والجليد والقسوة والرّحيل،ووحدها من رأت الوجوه الآثمة الغريبة تمتدّ أيادي تقتل وتنهب وتغتصب وتخنق أنفاس الفلسطينيين الذين لا يجيدون إلا أن يفلقوا باطن أراضيهم بفؤوسهم ليخرجوا منها إلى الوجود سرّ خلودها شجراً وأثماراً وريحاً طيبة.

العالم كلّه صفّق طوعاً أو كرهاً للقتلة الصّهاينة الغاصبين،أمّا أشجار الزّيتون والتّين والبرتقال والرّمان والعنب فقد نقشتْ على جذوعها أسماء الشّهداء الأبرار كي لا ينسى التّاريخ جريمة اسمها اغتيال فلسطين.

أقدام

قدماها أُستشهدتا في المعركة كما أُستشهد أهلها جميعاً،كانوا متحلّقين على طاولة خشبيّة قصيرة ينتظرون أذان المغرب كي يفطروا عندما التهمتهم قذيفة صهيونيّة.

جاء العيد وهي وحيدة في المشفى،زارها أصدقاؤها في المدرسة برفقة بعض معلماتهم،جميعهم كانوا يلبسون أحذية جلديّة متشابهة قدّمها متبرّع ما من خارج فلسطين في شحنة كبيرة أرسلها هبة من مصنعه الخاصّ للأحذية.

حذاؤها كان إلى جانب رأسها،هو حصّتها من هدية العيد،لم تعد عندها قدمان لتلبس

هديّتها.

شعر أصدقاؤها بالذّنب وهم يختالون أمامها بأحذيتهم الجديدة، وهي كسيرة الخاطر دون قدمين.

في اليوم الثّاني من العيد جاءوا جميعاً لزيارتها حُفاة الأقدام دون أحذية جديدة تختال بفخر في عيدها الحزين.

إصابة هدف

لا يحبّ ممارسة لعبة كرة القدم، ولكّنه ينصاع لمراقبة إخوانه وأبناء عمومتهم وأترابهم يلعبونها في تلك السّاحة الصّغيرة في المدينة القديمة المتوارية خلف البيوت والسّراديب الأثريّة.

وعد أمّه بأن يعود إلى البيت قبل الغروب، ولكن الغروب هبط على حين غرّة على المكان دون أن يخفّ راكضاً للبرّ بوعده لأمّه، ويغادره ليعود إلى بيته، قبل أن يخيّم الظّلام.

استمهله الأتراب والأقارب والأصدقاء كي ينهوا الجولة الأخيرة من اللّعب، ويحدّدوا الفائز وفق النّتيجة النّهائيّة.

كان يتمنّى من أعماق قلبه أن تمرّ الدّقائق الأخيرة سريعاً كي يُحّقق الهدف الفيصل، فيعود سريعاً إلى بيته قبل أن تغضب والدته لتأخّره عن موعد العودة المُتّفق عليه. الدّقائق مضت ثقيلة إلى أن قرّر العدو الصّهيوني أن يدخل اللّعبة في اللّحظات الأخيرة من جولاتها، لقد دخل اللّعبة دون استئذان، وأصاب الهدف النّهائي، لقد أطلق صاروخاً شلع السّاحة من مكانها، وفتّك بأجساد اللاعبين الصّغار الذين لن يوافوا انتظار والداتهم في الميعاد، ولن يعودوا إلى بيوتهم قبل حلول الظّلام.

اغتصاب

الأحلام في فلسطين محرّمة على أهلها بقرار صهيوني عرفي، ولكنّها على الرّغم من ذلك

تغازل حلمها الأنثويّ ليل نهار،هي تصدّق حلمها،وتنتظر أن تلبس الثّوب الأبيض،وأن تتزوج من أسمر طويل وسيم،وأن تلصق العجين والورد على باب بيتها عندما تدخله عروساً مجلّلة بعباءة جدّها المقصّبة لتجعل وجودها في بيتها أبديّاً وولوداً وهنيئاً،فتمطرها زغاريد النّسوة مشفوعة بالملح المنثور في عيون الحاسدين.

جمالها الخارجيّ كان خافتاً لا يصطاد الاهتمام،أمّا جمال روحها فهو منارة من نور،وقليل من الرّجال من ترى أعينهم أنوار دواخلها.

في دفاع عن أبيها الذي كان يقصد أرضه عندما هاجمه المستدمرون الصّهاينة تحوّلت إلى أسيرة في المعتقل الصّهيونيّ بعد أن شجّت رأس أحدهم بحجرها بعد أن لطم والدها العجوز الوقور.

ليستْ نادمة على ما فعلتْ،ولكنّها حزينة على هديتها لزوج المستقبل التي هدرها الجنود في المعتقل انتقاماً منها،لقد اغتصبوها مراراً وتكراراً كي يكسروا كبريائها،ويحرقوا اعتزازها بنفسها،وينتقموا منها أبشع انتقام،لكنّهم زادوها نوراً فوق نور،إلاّ أنّها أيقنت أنّ أحلام الزّوج والعرس وثوب الزّفاف قد تبخّرت للأبد على صفيح مستعر اسمه اغتصابها.

خرجتْ من المعتقل دون حلمها وعذريتها،لكنّها وجدتْ في انتظارها سبعة شبان فلسطينيين قد قُدّوا من الرّيحان والنّعناع يتنافسون على الزّواج بها ظفراً بشرفها الذي لم يُنتقص باغتصاب لئيم في معتقل صهيونيّ.

التّوائم الأربعة

هنّ توائم أربعة منحوتة بعناية إلهيّة ليكنّ أربع فتيات صغيرات بوجوه ملائكيّة وشعر شوكيّ كورود الصّحراء وعيون عشبيّة اللّون مثل ماء بركة رومانيّة في أصبوحة مطر.هنّ توائم متشابهة لا يستطيع أيّ بشر أن يميّز إحداهنّ عن الأخرى،وحدها أمّهن (باسلة)هي من تميّز-بصعوبة- إحداهنّ عن الأخرى،وتخصّص لوناً واحداً ثابتاً لكلّ واحدة كي يستطيع الآخرون تمييزها عن أخواتها.

هي تجبرهنّ على أن يلزمن ألوانهنّ المميزة في لباسهنّ،إلاّ أنّها عجزتْ عن أن تقنعهنّ بذلك في هذه المرّة،إذ صمّمن على أن يبتعن أثواباً متشابهة ذات لون واحد،وهو اللّون الأبيض،ليلبسن هذه الأثواب المتشابهة في زفاف خالهنّ (إبراهيم) الذي سيكون بعد عيد الفطر المبارك.

أمام إصرارهنّ اضطرّت الأمّ (باسلة) إلى أن تستسلم لرغبتهن الجامحة التي لا تستطيع أن تصمد أمام رفضها ما دمن قد تحالفن ضدّها في سبيل تحقيق هذه الرّغبة.

اشترت لهنّ الأثواب التي رفضن خلعها،وصمّمن على أن يعدن إلى البيت وهنّ مرتديات أثوابهنّ فرحاً واختيالاً بها أمام أترابهنّ من بنات الجيران والأقارب،فاستسلمت الأمّ من جديد لرغبتهن المسيطرة،وتركتهنّ عهدة عند عاملة البيع في متجر الملابس حتى تشتري بعض الخضار من السّوق المجاور،وتعود مسرعة إليهنّ لتصحبهنّ إلى البيت،إلاّ أنّ قذيفة صهيونيّة انهالتْ على سوق الملابس على حين غرّة،فأحالته إلى جحيم مستعر.

عادتْ (باسلة) مشدوهة إلى الأرض المحروقة عن بكرة أبيها،وهي من كانت قبل دقائق سوقاً وبشراً وبضائع،لم تجد (باسلة) من بناتها سوى مزق ملابس كانت بيضاء،وخليطاً من لحم آدمي معجون من أجساد بناتها التّوائم الأربع.

شرعت تلمّ اللّحم المتناثر،وتحوشه في صدرها بعد أن عجزتْ - لأوّل مرّة في حياتها -عن أن تميّز بين بناتها التّوائم الأربع!

الأمّ

هي لم تنجب طفلاً واحداً في حياتها،ولكنّها على الرّغم من ذلك أمّهم جميعاً؛يسميّها الجميع (الأمّ خضرة)،لا يعرفون الكثير عن حياتها،ولكنّها تعرف كلّ شيء عن حيواتهم،هي أمّ الأسرى جميعهم في المعتقلات الصّهيونيّة في فلسطين المحتلّة،كلّ أسير فلسطينيّ أو غير فلسطينيّ يقبع في معتقلات الاحتلال يغدو ابنها خبط عشواء فور دخوله المعتقل،تقطع أيّامها تدور من معتقل إلى آخر،وتزور أبناءها الأسرى،وتظهر اهتماماً

خاصّاً بأبنائها الأسرى المقطوعين عن بلادهم وأهليهم بعد أن جاءوا إلى فلسطين لأجل الدّفاع عنها،هي أمّ الأردنيّ الذي ترك مدرسته،وجاء ليدافع عن فلسطين،وهي أم الأسير العراقيّ الذي أقسم على أن يصلّي في المسجد الأقصى بعد أن يتحرّر بمشاركته،وهي أم الأسير اليمنيّ الذي جاء يشارك في تحرير فلسطين إكراماً لأخوال ابنه،وهي أم الأسير الجزائريّ الذي أقسم على أن يجاهد حتى تحرير فلسطين كما جاهد والده وجدّه لتحرير بلادهم من المستعمر الجزائريّ،وهي أمّ الأسير المصريّ الذي ترك عروسه،وجاء إلى فلسطين ليدافع عنها لأنّها عروسه الأجمل.

هي تعدّ الأيام إلى حين خروجهم من معتقلاتهم،وتتابع مع المحامين ومؤسّسات متابعة قضايا الأسرى كلّ مستجدّ يخصّهم،وترسل الرّسائل إلى أهل عائلاتهم،وتكتب الرّسائل المزوّرة لهم إن لم يصلهم ردٌ لسبب ما من أهاليهم خارج فلسطين.

إنّها أمّ جميع الأسرى،إنّها (الأمّ خضرة) التي تقارع التّجار والمتسوّقين في السّوق،وترفض أن تُساوم في أسعار بضائعها من الخضراوات والفواكه،فأيّ نقص في مربحها يعني أن يقلّ مخصّص أحد أبنائها الأسرى من عونها.

على الجميع أن يدفعوا الأسعار التي تطلبها (الأمّ خضرة) دون فصال كي تطير بالمال إلى أبنائها الأسرى.

الأرجوحة

لطالما استرقت النّظر إلى تلك الأرجوحة التي تتمايل بغنج مستفزّ مستدعٍ لها،وهي تغوص في بركة من الأعشاب الخضراء التي تنام تحت قدميها،راودتها نفسها كثيراً كي تعبر الأسلاك الشّائكة التي تحيط بالمستدمرة[1] الصّهيونيّة كي تدلّل نفسها ببعض المتعة

١- المستعمرة تحمل معنى العمار،أمّا ما يبنيه الكيان الصّهيونيّ على أرض فلسطين ليأوي فيه المهاجرين الصّهاينة المرتزقة هو ليس أكثر من مستدمرة تدمّر الأرض والشّعب الفلسطينيّ بعد أن تسرق الأرض الفلسطينيّة من أهلها بقوة القهر والظّلم،ثم بعد ذلك تفسد كلّ شيء .إذن هي مستدمرة لا مستعمرة.

على تلك الأرجوحة الجميلة.

تلك الطّفلة الصّهيونيّة الحمراء البشرة كانت تقضي جلّ وقتها في اللّهو على الأرجوحة الحلم،ولعلّها في حاجة إلى رفيقة مثلها تشاركها المتعة واللّعب،وتقاسمها أسرارها الطّفوليّة الخطيرة في حدّ تقديرها.

تتجرّأ،وتعبر الأسلاك الشّائكة التي تفصل قريتها الفلسطينيّة النّائية عن المستدمرة المستذئبة،تجري نحو الأرجوحة،لكنّها لا تصل إليها،يتناوشها المستدمرون[٢] الصّهاينة بالفؤوس والسّكاكين والخناجر.

يقطّعونها إرباً،ويحرّقونها في مستعر النّار عقاباً لها لأنّها طفلة فلسطينيّة بريئة حلمتْ بأن تلهو بأرجوحة لطفلة صهيونيّة حمراء البشرة ملعونة.

المؤذّن

لم تمنعه سنون العجز والمرض والتّقدّم في السّن وضعف النّظر من أن يقود نفسه بتؤدة إلى المسجد ليؤّذن فيه خمس مرّات في اليوم الواحد.لم يفته رفع آذان واحد أربعين عاماً. الجميع في مدينة الخليل يحفظون الآذان بصوته.

أمره جنديّ صهيوني بأن يعود أدراجه إلى بيته،وأن لا يرفع الآذان بسبب حظر التّجوّل الذي يُفرض على المدينة خبط عشواء.لكنّه رفض أن يفوّت رفع الآذان،ولو كلّفه ذلك دفع عمره.

رصاصة صهيونيّة أردته قتيلاً على بلاط المدينة القديمة على بُعد من خطوات من باب المسجد.سحله الجنود الصّهاينة باستهتار إلى داخل مجنزرة مصفّحة في إجراء تحفّظيّ مجهول المدّة.

لكنّ روحه صمّمت على أن ترفع الآذان في وقته،غادرتْ جسده على يسر،وأسرعت إلى المأذنة،ورفعت الآذان في وقته،فصدح صوت المؤذّن في سماء مدينة الخليل مودّعاً بدعة

٢- هم مستدمرون لا مستعمرون؛لأنّهم لا يعمّرون بل يهدمون.

جسده الذي غادر إلى البعيد مكوّماً في مجنزرة صهيونيّة.

المحرقة

رآهم أجمعين ينقضّون على ذلك الفلسطيني المزارع العجوز وزوجته وحفيدته الصّغيرة، ويستفردون بهم شمال الحاجز الشّائك الذي يفصل المستدمرة عن حقل العجوز الفلسطيني، ويمزّقونهم إرباً بالفؤوس، العجوز المسكين دافع عن زوجته وحفيدته الصّغيرة إلى أن فصل فأس ما رأسه عن جسده، وبتر فأس آخر في الوقت ذاته كفّه عن يده وهو يردّ الضّربات النّاهشة عن حفيدته الصّغيرة التي تشبّثت بحضن جدّتها وفؤوس المستدمرين الصّهاينة تمشّط لحمها بدءاً من الظّهر.

لقد رآهم يفعلون ذلك بدم بارد وبمتعة، ودون سبب خلا الاستمتاع بتعذيب بشر عزّل، لقد شاهد كلّ شيء بأمّ عينيه، ثم رآهم ينسحبون كالضّباع الجبانة إلى أوكارهم في المستدمرة.

لم يرَ استياء حقيقيّاً على وجه والديه عندما تفاجآ برؤيته يرمقهما برهبة واستنكار، اقتربت أمّه منه، وربتتْ على كتفه بيدها المنجّسة بدم الأبرياء، ثم ثتته في حضنها على كره منه، ولبستْ قناع الآدميّة الذي لا يليق بها، وقالتْ له بحنان ممجوج: «حبيبي الصّغير الجميل (ليفي)، أنتَ تعرف أنّنا نحن اليهود مستضعفون، ويجب أن ندافع عن أنفسنا».

أردف أبوه قائلاً كمن يرتّل سفراً من أسفاره المزوّرة: «لقد قتلونا هناك، نعم في المحرقة في ألمانيا قتلونا جميعاً، يجب أن ننتقم من العالم بأسره بسبب ذلك».

صمت الطّفل، وظلّ يحدّق في وجهي والديه المتوحّشين، ودعا الله في سرّه أن يرسل والديه المتوحّشين إلى جحيم أيّ محرقة كانتْ.

المعجزة

لا يؤمن أبداً بالمعجزات منذ اعتاد على أن يرى الموت يقسم الوجوه البريئة،ويرتع في هذه الأرض المشعلة بالثّورة والنّضال ضدّ الكيان الصّهيوني،يستطيع القول إنّ إصرار هذا الشّعب الفلسطيني على الحياة والنّصر والتّحرّر هو ما دفع به ليتبرّع عبر المؤسّسة الدّوليّة التي ينتمي لها ليترك حياته المترفه في السّويد،ويأتي لمناطحة الموت والألم في هذه المستشفى الذي بات مزدحماً وقذراً مثل محطة مهجورة مسكونة بالأرواح الشّريرة.

أربعين يوماً وليلة والقصف الصّهيوني يستهدف المدنيين العزّل من الفلسطينيين،أربعون يوماً وليلة علّمته أن يكفر بالبشريّة التي تغض الطّرف عمّا يحدث في هذه البقعة من كوكب الأرض،هنا رأى الموت يطلق العنان لنفسه دون رادع،ورأى البشر يواجهونه وجهاً لوجه دون خوف،وتعلّم أنّ الموت جبان وحقير يخطف الوجوه البريئة دون خجل.

منذ بدأت اللّيالي الأربعون الملعونة بالقصف،وهو يعاين المعجزة بأم عينيه،وينكرها،ولكنّه ما عاد يطيق كفره بها،بطون النّساء الفلسطينيّات كلّها أكنّ صبايا أم في منتصف الشّباب أم في شرخه تعجّ بتوائم أربعة أو خمسة أو ستة،حتى النّساء اللّواتي لم يتزوّجن أو يمسسهن بشر أو العواقر تحرّكت أرحامهنّ بالأجنّة المعلنة وجودها بحركات عنيفة صارخة.

الأحمال العجيبة تكبر بسرعة غير طبيعيّة،وتكاد الأجنّة جميعها تغادر الأرحام لتكون أطفالاً تنزلق إلى الدّنيا الدّبقة لتكمل مسيرة النّضال،الذين يموتون من الفلسطينيين كُثر،أمّا القادمون المقبلون من الأرحام العجيبة فهم أكثر.

إنّه يؤمن بأنّ زمن المعجزات قد انتهى،لكنّه بات يؤمن الآن بأنّ رحم المرأة الفلسطينيّة معجزة قادرة على بعث الحياة.

يقرّر أن يتجاهل القصف والجرحى المنهالين عليه من كلّ حدب وصوب؛ليأخذ راحة تكفيه لأن يشرع في القريب في توليد النّساء ذوات الأحمال العجيبة،فهو يريد أن يكون أوّل من يستقبل الأطفال الفلسطينيين القادمين إلى الدّنيا.

تِيه

مضى على تِيه ابنها أكثر من ثلاثين عاماً مُذ داهمت عصابات الصّهاينة قريتهم في طولكرم، ونهبت كلّ ما فيها، وأمعنت فيها القتل والذّبح والتّشريد والتّهجير، وفي حمّى الموت والهرب تاه طفلها الأصغر.

أمضت ثلاثين عاماً من عمرها تبحث عنه في الملاجئ والمستشفيات والسّجون وشواهد القبور، تفرّست في وجوه أترابه جميعاً لعلّها تجده متوارياً في وجه أحدهم، لكنّها لم تعثر عليه.

قدّمت لثرى فلسطين سبعة من أبنائها شهداء دفاعاً عن أرضهم فلسطين، وظلّت تبحث عن ابنها الثّامن التّائه لا لتحضنه، بل لتقدّمه شهيداً ثامناً للوطن، فهي نذرتْ كلّ ما أنجب بطنها لفلسطين، ويجب أن تفي بنذرها المقدّس.

تواريخ

جدّته تؤرّخ أزمانها بالنّكبات والمصائب، كلّما أرادوا وهو وإخوته وأبناء عمومته أن يداعبوها، وأن يخرجوها من أجوائها الصّوفيّة التّعبّديّة التي تعيشها منذ سنوات منذ أُستشهد ابنها الأوسط على أيدي الصّهاينة، يسألونها عن أيّ مناسبة عائليّة أيّاً كانت، لتؤرّخها لهم بمأساة من مآسي الفلسطينيين.

الأحداث جميعها في ذهنها مرتّبة وفق نكبات الفلسطينيين، يحاولون أن يتلاعبوا بتأريخها المأساويّ، فيختارون حدث ولادة حفيدتهم الأخيرة، ويسألونها متى كان ذلك؟

تحدّق في وجوههم، لا تستطيع أن تجد حدثاً فلسطينيّاً مرتبطاً بهذه الولادة، تصمتْ قليلاً، ثم تبتسم لهم بأسى وانكسار، وتقول: »أنا أحفظ متى أُستشهد أولادي، وأنتم عليكم أن تحفظوا متى وُلد أبناؤكم«.

ثوب زفاف

لقد بلي ثوب زفافها لطول استلقائه المهزوم تارة على سريرها،وتارة في قاع حقيبة جلديّة عتيقة تنام فوق خزانة غرفتها.

غسلته أكثر من مرّة بعد أن اتّسخ بالغبار وبأيدي اللامسين التي تغفو عليه فرحاً بجماله الأبيض الطّاهر كلما لبسته لتقيسه،وتصبّر نفسها بمرآه،وتعده بفرج قريب.وما أكثر ما تقيسه،وتختال به أمام القريبات والصدّيقات وأمام مرآتها الطّوليّة المشروخة الزّوايا.

أشهر طويلة وثوب زفافها ينتظر،ولا فرج يدنو منها ومنه كي تطير إلى زوجها مع وقف التّنفيذ بعد أن تعبر معبر رفح وصولاً إلى أقرب مطار في الإسكندريّة أو في القاهرة كي تستقلّ أوّل طائرة تيمّم نحو مدينة دبي الإماراتيّة حيث يقطن زوجها ويعمل،وحيث قابلته لأوّل مرّة منذ سنوات عندما كانت في زيارة يتيمة لأختها المقيمة هناك برفقة زوجها وأولادها منذ عشرين عاماً.

احتاج زوجها أشهراً طويلة حتى يستطيع أن يرسل أسرته من مدينة الخليل إلى مخيّم الشّاطئ في غزّة كي يخطبها،ثم يسند لوالده بتوكيل رسميٍ مهمّة استكمال إجراءات الزّواج بها.

منذ تلك اللّحظة هي تنتظر أن يُفتح معبر رفح كي تلحق بزوجها،لكنّ المعبر مغلق بشكل دائم منذ مدّة طويلة،وهي لم تنجح في المرّات القليلة التي فُتح فيها في أن تجتازه.

لبستْ ثوب زفافها لأكثر من مرّة،وانتظرتْ دورها لتعبر المعبر برفقة حقيبتها الجلديّة الوحيدة التي تكدّس فيها جهاز عرسها،ولكنّها في كلّ مرّة كانت تخفق في العبور المبتغى،فتعود أدراجها كسيفة حزينة ترهف السّمع على استحياء وتكتّم لبكاء ثوب زفافها الذي يحلم منذ زمن طويل بأن يطير إلى حضن الرّجل الذي تزوّجته مع إيقاف التّنفيذ على ذمّة معبر ساجن لا يفتح أبوابه حتى لثوب زفاف حزين!

حفّار قبور

يفخر بوالده الذي يسميّه العدو الصّهيوني(حفّار القبور)،هو مهندس متخصّص في علم الاتّصالات،كان يمكن أن يكون من أهمّ علماء العالم في هذا التّخصّص لو كانت الفرص متاحة أمامه بعدالة،ولم يكن أسير نضال موصول ضدّ عدوّه الصّهيوني.

والده يصمّم أهمّ أنظمة تفجير القنابل عن بعد، فقد رجليه في إحدى غارات العدّو على مقرّ نضاله،فنجا من الموت بأعجوبة،من يومها تفرّغ لقبر اليهود،فهو يصنع كمائن لهم تحوّل الأرض جحيماً تحت أقدامهم،وتدفنهم في أماكنهم.

يصمّم على أن يناديه أترابه بلقب (ابن حفّار القبور) فخراً بأبيه،وكلّما سمعهم يعظّمونه بهذا اللّقب تذكّر كم هو مشتاق لرؤية والده الذي لم يره منذ أكثر من عام؛فهو مشغول بحفر القبور للجنود الصّهاينة.

القزم

وُلد (صلاح) بجسد متقزّم حدّ الاختفاء،فأسموه القزم (صلاح)،لم يحظَ يوماً باهتمام أو إعجاب أو عشق بسبب جسده القزم الذي يسجن فيه روحه العملاقة.

ما كانت تعنيه الأعين المزدرية أو قلوب الجميلات التي لا تطرق بابه،إنّما عناه أن يعيش فدائيّاً فلسطينيّاً،وأن يموت شهيداً بعد عمر طويل من النّضال المستأسد.

لكنّ الشّهادة طرقت بابه مبكّرة مستعجلة الاستحواذ عليه،لقد سمع طرقاتها على بوابة روحه في تلك اللّيلة التي كانوا ينفذون فيها عمليّة فدائيّة ضد مواقع صهيونيّة حسّاسة.

كان فرداً في جماعة يرأسها صديقهم المناضل (أبو النّور)،ما كان يتوقّع أحد أن تغتاله قنبلة أرضيّه مكافحة للأفراد،فتبتر قدميه بزفرة واحدة منها.

حاول رفاقه في المجموعة أن يحملوه على أكتافهم ليهربوا به،لكن ذلك يعني تعطيل واحد منهم على الأقل،وإعاقته عن الهرب في الوقت المناسب،وإيقاعه في أيدي جنود

العدو الصّهيوني، صمّم على أن يتركوه، وأن يلوذوا سريعاً بالهرب دونه، عندما تقاعسوا عن تلبية رغبته هدّدهم بإطلاق الرّصاص عليهم إن لم يسارعوا بالابتعاد عنه قبل أن تدركهم كلاب الجنود التي تقترب أصواتها منهم.

انصاعوا لأمره دامعي العيون والقلوب، وظلّ يحمي ظهورهم برصاصه حتى نفدت ذخيرته، وخرقّت جسده رصاصات العدوّ الصّهيوني.

لقد عاد إلى أرضه بعد أشهر من اعتقال جثمانه ليواريه أهله في التّراب بعد أن أُفرج عن جسده المنخّل بالطّلقات النّارية.

لم يكن جسده أكثر من جذع صغير مخرّق بالرّصاص ونهش أنياب الكلاب ورأس ويدين دون قدمين، لكن رفاقه في الفداء صمّموا على أن يدفنوه في قبر طويل يشبه روحه العملاقة ونفسه السّامقة، وهذا ما كان.

الكنعاني

الصّهاينة منعوه من أن يمارس متعته الكبرى في الحياة، وهي تدريس التّاريخ الفلسطيني لأبناء شعبه، وهدموا المدرسة التي كانت معبد متعته، وشرّدوا طلبته بعد أن قتلوا طالبه (سعد) الذي كان يسمّي نفسه بـالكنعاني فخراً بأصوله، ويسمّي الصّهاينة بالمسوخ.

كان طالبه النّجيب الأثير الذي يحفظ كلّ كلمة يدرّسها له، كان وريثه الشّرعي في سدانة التّاريخ الفلسطيني.

قرّر أن ينتقم لطلبته الشّهداء، خطّط مع جماعة من الفدائيين الفلسطينيين كي يحرق معسكراً عسكريّاً للمسوخ، الخطّة كانت صعبة؛ لأنّها تستدعي تجاوز حصونهم وحرسهم، لكنّه عكف نفسه على حسن التّدبير والتّدارس حتى استطاع أن يصل وفريقه إلى الهدف.

راقبهم من خفاء، لم يكن فيهم وجهاً واحداً شمسي مثل وجه طالبه الكنعاني، فجّر المكان بهم، فاستعرت النّار تأكلهم، شعر بالرّضا كما يشعر الكنعاني عندما يطهّر بالنّار أيّ

نجس أصابه،تنفّس الصّعداء،وفي البعيد رأى وجه (سعد) الكنعاني يبتسم له وهو يتمتمّ بتعويذة كنعانيّة تطرد كلّ غريب عن أرضه وشعبه.

خائن

لا يعرف لماذا يدفعه قائده في الجيش الصّهيوني لمواجهة الفلسطينيين الغاضبين بسبب مصادرة أراضيهم من قبل كيانهم الملعون،يقول قائده له إنّه بحكم أصوله الفلسطينيّة قادر على التّفاهم معهم بشكل أفضل،لكنّه يعلم من أعماقه أنّهم يرسلونه إليهم لأنّهم لا يبالون حقيقة بأن يقتله الفلسطينيون الغاضبون مادام منهم ومن جلدتهم،وإن انسلخ عن أصله،وتعرّى من عوده.

اليوم صادروا أرضاً فلسطينيّة على امتداد الجبل الذي تقع فيه بيوت أسرته ومزارعهم،كان يعرف كلّ وجه من الوجوه التي تصدّى لها ليرّدها عن أراضيهم المصادرة.

لم يناده أيٌّ منهم باسمه،تجاهلوه وكأنّهم لا يعرفونه،لم يجرؤ على أن ينطق كلمة واحدة بالعربيّة،شجّوا رأسه بحجر،فهرب منهم لا يطيق صبراً في المكان،كان يجري محاولاً أن يطأ الأرض بخفّة؛إذ كان يعلم أنّ الأرض أيضاً قد لفظته،وتبرّأتْ منه.

حليب سباع

لم يشرب حليب سباع ليكون بمثل هذه الجرأة،بل شرب حليب النّساء الفلسطينيّات؛لقد أُستشهدتْ أمّه وهو رضيع،فتولّت نساء الحارة التي يسكن فيها أمر رعايته وغمره بحنانهن،وتقاسمن جميعاً فرح إرضاعه وإروائه حتى شبّ قويّاً أنوفاً يقول لكلّ نساء الحارة يا أمّي،وينادي صبيتها وصبيانها بأخي.

رضع الشّجاعة منهن جميعاً،وحمل مدفع (آر بي جي)،ليصبح صقراً يصيد به بغاث الطّير من الجيش الصّهيوني،وكلّهم بغاث طير كما تراهم عيناه الصّقريتان.

علق الجنود الصّهاينة صورة له على الواجهات في المدينة كتبوا عليها لإرهابه وتحطيم

معنوياته: »هذا المخرّب مطلوب للجيش الإسرائيلي، سوف نقتله في القريب«.

في اليوم الثّاني كانت هناك صور جديدة له وهو يحمل فيها مدفع (الآر.بي.جي) قد ألصقها على صور البارحة، وكتب عليها باستهتار بعدوّه واستفزاز له: « هذا الفدائي، سوف يقتل الجيش الصّهيوني كاملاً، وهم جميعاً مطلوبون له«.

جَنين

لم يعرف الجنين الصّغير المنزلق من حنان سادر في رحم أمّه لِمَ شقّ سكين حادٌّ غلالته الفضيّة الشّفافة بعد أن بقر بطن أمّه، فانزلق خارج رحمها الدّبق الدّافئ مشدوهاً عارياً.

لم تتلقّفه يدي قابلة أو قريبة أو حانية قبل أن يسقط من غير علٍ على أُمّ رأسه، انكفأ أرضاً على وجهه، سجد كمن يقبّل الأرض، كانت أمّه تفارق الأرض بزفرات متسارعة بعد أن قطع جنديّ صهيوني متوحّش ثديها الأيمن بضربة جديدة من سكينه الوحش، ثم بقر بطنها لينتزع جنينها من مكين أحشائها.

ما عبئ أحد بأمّه القتيلة النّازفة حتى الانطفاء، ظلّت جبهته تلامس الأرض، وقفاه العاري الصّغير النّاعم يتحدّى وجه قاتل أمّه حيث وقف يتلذّذ بمشاهدة نزاعها ونزاع جنينها المنزلق خارج رحمها.

داسته أقدام جنود عصابات الصّهاينة، وكان آخر عهده بالدّنيا نظرة عجلى استرقها من سجوده الإجباريّ على الأرض، وهو يرى أهل قريته في البعيد يغيبون خلف الأفق تطاردهم فلول المداهمين المتوحّشين، والغروب الدّامي يحتضن بأسىً أباه الذي دلف إلى جنون آسر بعد أن خلع عقله في دقائق لفظاعة مرأى مقتل زوجته وجنينهما، كان يردّد دون توقّف: » قتلوا زوجتي (صبحيّة)، وبقروا بطنها«.

يحاول الجنين أن يصمّ شفتيه ليستنجد بأبيه الذي يطارد الغروب هارباً نحو البعيد، لكن الموت يعاجله بنزعه من اختناقه بحزنه وألمه، ويرحمه من جحيم قادم اسمه الطّرد من وطنه.

رحيل

منذ هُجّر الكثير من الفلسطينيين قسراً عن وطنهم في عام ١٩٤٨،وهو يقول لأبنائه وحفدته:» أنا لا أخرج من وطني أبداً،أنا أموت فيه،ولا أخرج منه»،وكلما كان يرّدد هذه الجملة،وكثيراً ما كان يردّدها،كانت جدّتهم تقول:» وأنا أموت مع جدّكم حيث يموت،ولا أفارقه أبداً».كان الأبناء والحفدة يضحكون عندما يسمعون كلام الجدّين العجوزين العاشقين،ويطلبون منهما أن يرويا لهم من جديد قصّة عشقهما وزواجهما التي يعرفها الأقارب والجيران،ويضربون صفحاً عن الخوض في احتماليّة تهجيرهم من أرضهم تشاؤماً من حديث كهذا.

لكن الشّؤم أصابهم سريعاً،وجاء عام ١٩٦٧،ووجدوا أنفسهم يُطردون من وطنهم بعد أن جُرّدوا من كلّ شيء،خرجوا حفاة معدمين تاركين وراءهم البيوت والمواشي والأرض الحبلى بثمارها والخوابي المكدسّة بحصاد جهدهم،تناوب الرّجال الأقوياء منهم على حمل الجدّين إذ كانا عاجزين عن السّير هرماً ومرضاً.

رفض الجدّان أن يُحملا بعيداً عن وطنهما،وأقسما على أولادهم وحفدتهم أن يخلّوهم وشأنهم،وأن يذهبوا دونهم في حال سبيلهم،لكن الآذان لم تصغِ لهما،وحملتهما عنوة في طريق الرّحيل،احتجّا بشّدة على حملّهم دون رغبتهم،ظلّا طوال الّطريق يقسمون على الجميع أن يتركوهما في وطنهما،ولكنّهما صمتا عن الاحتجاج قُريب حدود الوطن،عندما تفقّد الحاملون سبب صمت الجدّين وجدوهما قد فارقا الحياة قبل خطواتٍ من الخروج من أرضهم،طأطأوا جميعهم رؤوسهم،وقرّروا أن يعودوا من حيث أتوا يحملون الجدّين المتوفّين ليدفنوهما في أرضهما مهما كلّفهم ذلك.

تعويض

سمع خرافة اسمها تعويض أهل غزّة عن الدّمار الذي لحق بهم،لم يحصِ خسائره الماليّة،ولا راعه الجرح الكبير في فخذه،ولا تفقّد حطام بيته وبيوت إخوته ليحصي أثاثاً قد دثر أو بناء قد سوّي بالأرض،بل عجّل إلى بحر غزّة الذي يعشقه،أسبوع كامل أمضاه يصنع تماثيل من رمل البحر على هيئة من فقدهم من أهله.

في صباح اليوم الثّامن أتمّ صناعة حشد من تماثيله الرمّليّة التي تُجسّد من فقد من أسرته.

قبّل تماثيله بإجلال،وصرخ بحسرة: «هيا عوّضوني عن خسارة أولئك أجمعين.هيّا أعيدوا الحياة لهم،فهذا هو تعويضي الوحيد عن خسارتهم».

حَشْر

يقف يتأمّل المستدمرة الصّهيونيّة التي تُدشّن للتّو على رفات أرضه بعد مصادرتها كلّها،لم يتركوا له من أرضه سوى عكّازه المصنوع من إحدى جذوع شجراته الشّهيدة.

أرتال من اللّحم الصّهيوني تُكدّس في قوالب من الإسمنت فوق أرضه،من مكانه هنا من أعلى التّلّة يستطيع أن يكشف فضاء المستدمرة بشكل كامل،يحصي عدد البيوت فيها على عجل دون اهتمام.

تهمس له حفيدته بانزعاج: »إنّهم كثر يا جدّي.أليس كذلك؟«.

يجيبها جدّها وهو لا يزال يحصي عدد البيوت في المستدمرة: «يجب أن يأتوا جميعاً إلى هنا يا صغيرتي،في هذه الأرض سيحشرون في طريقهم إلى جهنّم».

عُقْم

لو لم تعشقه لحرصتْ على أن تعشقه فخراً به وإعجاباً بنبله واستهانته بالموت ؛فهو ليس الرّجل الذي وُلد حقيقة من أحلامها،بل هو الفارس الملثّم بالكوفيّة الفلسطينيّة الذي لا يقبل حكم النّذل الصّهيوني به وبشعبه،ولذلك تزوّجته؛فقد أرادت أن تتجب منه

دون توقف كي تمدّ وطنها بالفدائيين،جهدتْ كي تحمل منه لتنسل منها ومن حبيبها الزّوج أبطالاً محرّرين،لكنّه اكتشفتْ أنّها عقيم لا تنجب،الأطبّاء أكّدوا لها عجزها عن الإنجاب،والسّنين العجفاء الممحلة صكّت آمالها بخيبة الأمل الدّائمة،لكنّها تريد أن ينجب زوجها الحبيب فدائيين لوطنه،خطبتْ له إحدى قريباتها لتكون زوجته الثّانية التي تهبه ما عجزتْ عن منحه له،شدّتْ حرائق غيرتها على صدرها لتكتوي بها بصمت وسريّة،وأخذت تنتظر ولادة الفدائيين الصّغار حتى ولو كانوا من امرأة غيرها.

كنيسة

كانوا في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد الانتهاء من صلاة الجمعة في المسجد الأقصى،يعرفون أنّ أُسرهم في انتظارهم ليتناولوا معهم طعام الغداء طقساً من طقوس اللقاء الأسريّ في غداء يوم الجمعة،كانوا يغذّون الخطى إلى بيوتهم عندما هاجمهم الجنود الصّهاينة،فدفعوهم جميعاً في درب كنيسة القيامة التي فتحت أبوابها لهم كي يختبئوا فيها؛فهي كنيسة فلسطينيّة قلبها نصفه فلسطيني،ونصفه الآخر مسلم.

كاهن الكنيسة صمّم على أن يحمي المسلمين المحتمين بالرّب فيها،لكنّ الطّلقات الصّهيونيّة صمّمت على أن تغتالهم جميعاً،الجنود الصّهاينة أطلقوا نيرانهم على كلّ من اعتصم بالكنيسة أو كان فيها،الدّم الفلسطيني ظلّ متوحّداً في لحظة إراقته أرضاً،دم فلسطيني،واحد في كنيسة تحضن مسلماً ومسيحيّاً.

رحل الجنود الصّهاينة وحُمل الشّهداء الفلسطينيون بعيداً عنها،وظلّت الكنيسة مشرعة حضنها للائذين بها .

دواء

حظر التّجول مفروض على مدينة جِنين بأسرها منذ أكثر من شهر،نفد الطّعام والماء والدّواء،وما استسلم الفلسطينيون المحاصرون،ولا وشوا بمكان الثّوار الفلسطينيين المحتمين بهم.

هو طفل في الخامسة من عمره،ولا يفهم تماماً ما يدور حوله،ولكنّه يعرف أنّ دواء أمّه قد نفد،وأنّه دواء مهم يكفل لقلبها أن يستمرّ في القرع،وإن بقيتْ يوماً آخر دونه فسوف تموت،ويعرف كذلك أن لا أحد يستطيع أن يخرق حظر التّجوّل وإلاّ تناوشته الرّصاصات تخريقاً وفتكاً بجسده،ولكنّه لا يخاف الموت إن تعلّق الأمر بأمّه.

يدسّ علبة دواء أمّه في جيبه بسرّية وتكتّم،وينتعل حذاءه الجلديّ الصّغير،يتعلّق بمزلاج رتاج البيت،ويفتحه،فيدلف إلى الشّارع مباشرة.

في لحظات قليلة تحاصره ثلاث دبّابات صهيونيّة،عيون صهيونيّة ترقبه بتخوّف من خلف دروع واقية،يصرخ به جنديّ صهيونيّ بعربيّة عرجاء:»عُد إلى بيتكَ أيّها المخرّب الصّغير».

يستجمع الصّغير شجاعته التي تتدفّق سريعاً في يده الصّغيرة التي تمتدّ إلى جيب بنطاله،وتخرج علبة دواء فارغة،ويقول بنبرة كلّها عزم وإصرار طفوليّ غير قابل للكسر:»يجب أن أذهب لإحضار الدّواء لأمّي كي لا تموت مرضاً».

يخطو خطوة جريئة في دربه دون أن يلوي وراءه،ويعلو صوت رصاص العدوّ الصّهيونيّ الذي يتسابق للوصول إليه ليغتال عزمه الطّفوليّ،تدركه الرّصاصات جميعها في آن في خطوته الثّانية،فينهار أرضاً،ويده الصّغيرة تأبى أن تفلت علبة الدّواء الفارغة.

رجال

كانت تسبّ الجنديّ الصّهيونيّ،وتضربه بنعلها عندما حاول منعها من الدّخول إلى قريتها،نهرها الجنديّ الصّهيونيّ بلغة عربيّة،ودفعها إلى الخلف بقوة،فكادتْ تقع أرضاً،أدركتْ من سحنته ولكنته أنّه خائن عربيّ مجنّد في صفوف العدوّ.أمرها متنمّراً أن تقف بعيداً عن الجنود الرّجال إلى حين تفتيشها من قِبَل مجنّدة صهيونيّة.

ابتسمت المرأة الفلسطينيّة باستهزاء،وحدّقت في عينيه متحدّية،وسألته بتقزّز: « أين هم الرّجال؟»

نضال

يعرف في الحياة إرادة واحدة تسكنه،وهي أنّه يريد أن يحرّر فلسطين من الصّهاينة الذين يسمّيهم أولاد الحرام.لا يفهم الكثير حول التّنظير والجدل السّياسيّ والفكريّ في قضيته،ولا يريد أن يعرف أيّ شيء عن ذلك،هو يختصر الفكر كلّه في جملة واحدة:»سأحارب أولاد الحرام حتى يخرجوا كالكلاب من وطني فلسطين أو يموتوا فيها».

لم يمارس في حياته شيئاً سوى القتال لأجل فلسطين،أشغله ذلك عن الزّواج والعمل والحلم،بل أشغله عن نفسه وعن الهرم إلى أنّ أدرك الموت في عمليّة فدائيّة نسفت جنوداً ومعسكراً،في آخر لحظة له في الحياة قبل أن يسكن للموت حدّث نفسه بسعادة قائلاً:» لقد حاربتهم حتى ماتوا فيها».

حالة خاصّة

منذ ولادته يعاني من إعاقات متعدّدة جعلته عاجزاً عن النّطق،وتأخر عقله جعله يعيش كطائر طاهر في دنيا الخيال والأحلام،لا يعرف من دنياه سوى أمّه وأخيه الصّغير الأصغر الذي يعتني به دون توانٍ.

لطالما تمنّت أمّه أن تسمعه ينطق كلمة واحدة في حياته،وطوّفت به على الأطبّاء والمستشفيات المتاحة على أمل تحقيق هذا الأمل الهارب نحو الاستحالة.

القصف الصّهيونيّ لم يعفه من النّار والحديد يصبها على أمّ رأسه طالما أنّه طائر ملاك يعاني من إعاقات متعدّدة،ولا يشكّل خطراً عليهم أو أملاً أو مكسباً لأهله وشعبه.

سقف بيته وقع على رأسه جرّاء القصف،ظلّ أيّاماً مفقوداً في عداد الشّهداء إلى أن عثرتْ أمّه عليه منزوياً في سرير ملطّخ بالموت في إحدى مستشفيات المدينة.

حضنته،وقبّلته،ورّكزت رأسه بصدرها المعرورق الفائض بالحزن والقلق،ابتسم لها،ونطق كلمة واحدة لا غير خطفها من ألسنة الجرحى والمسعفين والزّائرين: «فلسطين».

ابن أمّه

هو ابن أمّه في الملامح والشّكل والصّوت الرّخيم القادر على إنطاق الحجر إن غنّى أو ترنّم أو تلا القرآن الكريم،لكنّه ليس ابنها في حبّ فلسطين والنّضال ضدّ احتلال وطنه.

هو وحيدها الذي قطّعت عمرها في تربيته بعد موت زوجها شابّاً يافعاً.دلّلته على قدر الموسع المترف،وهي الأرملة الفقيرة المعدمة،حتى غدا لقبه (ابن أمّه) لرخاء العيش الذي يحياه في كنفها.

قبلت منه كلّ تقصير وتقاعس وكسل وإهمال وتواكل عليها،إلاّ أن يخون وطنه فلسطين، فهذا كفر لا تقبل به.لا تعرف كيف ومتى وأين ولماذا أصبح عميلاً رخيصاً لصغار الجنود الصّهاينة،لكنّها تعلم بالدّليل اليقين أنّه كان الواشي الآثم بفدائيين من عائلتهم،وهو من تسبّب في قتلهم على حين غدر وخيانة.

الآن تعلم علم اليقين أنّه سيشي بالكثيرين من الفدائيين الفلسطينيين الآخرين،وهو المطّلع على نشاط الكثير منهم بحكم قربه منهم لأنّ أمّه واحدة منهم.هو الآن في نظرها قد بات فرعاً ميّتاً نجساً مقصوفاً من سنديانة عملاقة طاهرة تصمّم على الحياة والتّغلغل في الأرض.

آن الوقت لبتر هذا الغصن النّخر على الرّغم من أنّه ثمرة قلبها وحصاد عمرها.أبلغتْ عنه فدائيي المنطقة كي يقنصوا رأسه الخائن،وطلبت منهم أن يفعلوا ذلك هناك في الجبل كي لا تراه مشبوحاً أمامها مسربلاً بعاره وخيانته.

في اللّيلة المقصلة صلّت العشاء،ونامتْ ليلها الطّويل آمنة راضية بما فعلتْ،ونسيتْ أنّ لها ابناً مدّللاً خائناً سترحل روحه هذا المساء إلى الجحيم لأنّه ليس ابن أمّه.

ابتسامة

لم تفارقه الابتسامة طوال حياته،فغدتْ عضلاته وجهه منكمشة بتيبّس على ابتسامة عريضة قادرة على ابتلاع أعظم حزن وألم وحرمان وخيبة أمل.

ابتسامته استطاعتْ أن تبتلع ذكرى مشاهد الإبادة في مخيم (صبرا وشاتيلا)،وأن تدفن دموعه في أعماق نفسه وهو يرى أسرته أشلاء لحم محروقة تتعفّن في شوارع المخيم الذي داسه الموت بكلّ جرأة ووقاحة.ابتسامته منعت الأكف الحانية من أن تداعب يتمه،وأن تستجدي الإحسان إليه،كما شكّكت بجدّيته وانضباطه عندما تقدّم متطوّعاً للانضمام في صفوف الفدائيين،ولكنّها في النّهاية أصبحت علامته المميزة الرّافضة لأن يرى أحد دمعة في عيون فلسطينيّة.

الآن ابتسامته تبدو أكبر وهو يطارد الموت المذعور منه،ويمدّ يده إلى فتيل الحزام النّاسف ليمحو عن وجه البسيطة هذا المرقص اللّيلي المحتشد حدّ التقيؤ بالجنود الصّهاينة الذين قادوا منذ أيام عاصفة إبادة لمدرسة أطفال فلسطينيّة في قطاع غزّة،تتسع ابتسامته أكثر،ويشدّ الفتيل،ويعلو شهيق الموت،ولا تفارقه ابتسامة الرّضا.

جبال

الجبال الجرداء البعيدة ترى المستدمرين الصّهاينة يسعون نحوها،هم يريدون في غفلة من

أهلها الذين يسكنون السّفوح والمدن والقرى والسّواحل أن يضعوا أيديهم عليها، وأن يبنوا عليها مستدمرات جديدة، الجبال وحدها من تراهم يعدون باتّجاهها في جنح اللّيل، تقرّر أن لا تحمل على قممها سوى أهلها الفلسطينيين، ترتجّ الجبال، فتزلّ عنها أقدام الصّهاينة وآليّاتهم، وتزعق زعقة تزلزل السّموات والأرضين قائلة: «يا سامعين الصّوت!»

فيسمع الفلسطينيون استغاثة جبالهم، يلبّونها سريعاً، يحملون بعض الأهل والولِد وقليل المتاع، ويهرعون يسكنون أعالي الجبال قبل أن يستولي المستدمرون الصّهاينة عليها، ويخلّفون الباقين من أهليهم في بيوتهم الأصليّة.

تتحصّن أعالي الجبال بأبنائها الملبّين لاستغاثتها، وتعود إلى وقارها وهدوئها اطمئناناً بوجودهم معها.

خيانة

لأوّل مرّة يقبض ثمن خيانته، ويدسّ المال في جيبه، ولا يفرّح نفسه بعدّ النّقود، والتّلذّذ بمداعبتها، وشمّ رائحة صنانها الذي يهيّج نهمه للمال، ويخدّر ضميره، وينسيه لقب (الغضيب) الذي تنعته أمّه به بسبب خيانته لوطنه، وتحالفه مع أعدائها.

سيان عنده إن نقص ثمن خيانته أم زاد في هذه المرّة؛ فهو سوف يصليه النّار بعد ساعات قليلة، لا يمدّ يده لتتحسّس المال في جيبه كما هي عادته، ولا يخشى أن ينكشف أمره، فيسارع الفدائيون الفلسطينيون لذبحه مثل مَنْ ذبحوا قبله من خونة شعبهم.

لا يريد أن يموت تحت أقدام الفلسطينيين، ولا يريد أن يُشنق على زيتونة لتنهشه الطّيور، ولا يريد أن يتعفّن في ساحات الحي بعد حزّ رقبته دون باكٍ له أو راثٍ.

لقد قرّر أن يموت كما يريد، الآن يريد أن يغيّر أقداره رغم أنوف العالمين أجمعين، أمّه ماتت قبل أيّام، وهي غاضبة عليه، رافضة أن تراه؛ لأنّه خائن. لم يجرؤ على أن يحضر عزاءها، أو أن يحمل في نعشها، أو أن يرافقها إلى قبرها كأيّ ابن بارٍ؛ فهو الخائن الممجوج الذي تتصيده عيون الفدائيين الفلسطينيين لتصيد رأسه الرّخيص بطلقة واحدة لا غير.

سيدخل المعسكر الصّهيونيّ كعادته،سيقابل الضّباط الصّهيونيّ بحضور عدد من الجنود وفق المخطّط لينقل لهم معلومات جديدة مفترضة عن تحرّكات بعض الفدائيين الفلسطينيين،وفي اللّحظة المناسبة سوف يفجّر الحزام النّاسف الذي يدّخره ليتطّهر به من آثامه جميعها.

سوف يموت ويموتون جميعاً،لن يعرف أحد أنّه مات فدائيّاً لا خائناً،لكن أمّه في السّماء ستفخر به،وستعرف أنّ ابنها الشّقي قد أدرك المغفرة في اللّحظة الأخيرة.

اقترب الوقت المحدّد للقاء،استعدّ للتّنفيذ،دخل المعسكر،وتشهّد عشرات المرّات،وفي اللّحظة المناسبة برقتْ ابتسامة أمّه في أعماقه،فسحب فتيل الحزام،وحلّ الموت على الجميع.

خُطبة

كلّ عريس يتقدّم لها تعيبه بعيب ما،ثم ترفضه،وتغلق باب غرفتها عليها باكية لأيام طويلة،ثم تخرج بعد ذلك،وتعلن لهم أنّها لا تريد الزّواج بعد استشهاد خطيبها (حسّان)،ثم تلين من جديد تحت ضغط أسرتها،وترى العريس الجديد الذي تقدّم لها،ومن جديد تعيبه،ثم ترفضه،ثم تهرع إلى غرفتها تبكي لأيام موصولة.

تريد العريس بطول (حسّان)وصوته ورائحته وقسماته ومشيته وطباعه وشجاعته وابتسامته وحبّه لفلسطين وعشقه لعينيها النّاعستين.

لا رجل يمكن أن يحمل صفات (حسّان)،سنين مضت على بحثها عنه في وجوه الرّجال دون أن تعثر عليه،وبدأت تلقّب بالعانس النّكدة لطول حزنها عليه.

عريس جديد ينتظرونه في بيتهم هذا المساء كي تتعرّف عليه،تنظر في وجه والديها اللذين كدّهما التّعب والشّقاء والخوف على مصيرها بعد موتهما،ويصبوان لأن ترضى بعريس ما تتّخذه زوجاً لها،وتقول وهي تتكوّم أرضاً أمام صورة (حسّان) المعلّقة في صدر البيت:» أبي أنا لن أتزوج غير (حسّان)،وهو لن يعود لأتزوجه».

زَرْع

جرّفوا أرضها بعد حرق محصولها لهذا العام،وأطلقوا الخنازير البريّة على مزارع العنب،وفي آخر المطاف جفّفوا بئر المياه التي تسقي زرعها منها.لقد استغلّوا أنّها فلسطينيّة وحيدة بينهم،وهم من يسيطرون على المزارع المحيطة بمزرعتها بعد أن صادروها من أهلها الفلسطينيين.هي وحدها بين أولئك الوحوش،قتلوا أبناءها تباعاً على تراب هذه المزارع وهم يزرعونها.

الآن غدت وحيدة تماماً،ولكنّها ظلّت قويّة،زرعتْ من جديد السّنابل التي خلعوها من أرضها،ونفخت فيها،فتفتّقت جميعها عن فلسطينيين زرّاع هبّوا جميعهم لنجدتها وعونها وزراعة أرضها من جديد.

زهايمر

ستون سنة من النّضال المستمرّ لم تستطع أن تزحزحه قيد أنملة عن إيمانه العميق بحقّه،لم تمض ليلة لم يناضل فيها متمسّكاً بأرضه،لم يفتّ في عضد عزيمته تآمر العالم كلّه مع عدوّه الصّهيوني،أمّا هذا المرض اللّعين الذي اسمه(زهايمر) فهو ما يخشى أن يأكل ذاكرته،فلا يتذكّر حدود أرضه ومساحتها،ولا يعرف عدد الأشجار المزروعة فيها ونوعها،فلا يستطيع أن يستمرّ في متابعة القضايا التي رفعها ضد المستوطنين الصّهاينة الذين وضعوا أيديهم بقوة الظلّم والاستبداد على الأجزاء الشّماليّة من أرضه.هل (زهايمر) هو مرض صهيوني؟ سوف يأكل ذاكرته كما أكل من قبل ذاكرة الكثير من البشر؟!

يقرّر أنّ خير طريقة للهجوم هي الدّفاع،يشرع يسجّل في سجل كبير كلّ صغيرة وكبيرة يعنيه تذكّرها عن أرضه ووطنه ونضاله وعدوّه،ويتربّص بمرضه اللّعين وقد أعدّ له عدّة الانتصار عليه.

بنطال العيد

بقرار طفوليٍ قطعيٍ لا يقبل الطّعن أو الرّد أو الاستئناف قرّر أنّه يريد بنطالاً كتّانيّاً أسود جديداً يلبسه في العيد المتربّص خلف الأبواب.

لم يجد الأب محيصاً من أن يستسلم لهذا القرار ما دام ابنه الوحيد المشتهى الذي جاءه بعد طول انتظار قد قضى به بحزم وإصرار لاسيما بعد أن قالتْ زوجته له بنبرة متوسّلة ذليلة: «اجبرْ بخاطر هذا الصّغير. ملابس العيد ليست إلاّ للأطفال الصّغار أمثاله».

صمّم الابن المدلّل على أن يرافق أباه إلى العمل كي يضمن أن يشتري له البنطال الحلم بعد أن ينتهي من عمله المضني في قطف جنى المحاصيل من الحقول التي اغتصبها المحتلّون الصّهاينة من أهل قريته.

لأوّل مرّة يرى الابن أباه الأبي يتكوّم بذلٍ وعجزٍ على حواجز التّفتيش والانتظار كي يدخل المناطق المستدمرة في وطنه كي يعمل ذليلاً في أرضه ليعود إلى بيته وزوجته وأطفاله حاملاً لهم قوت يومهم.

طوال اليوم عمل الأب بذلٍ منكود موصول لا يعرف راحة؛ فلا يُسمح له بأن يستريح. راقبه الابن بانكسار وشعور دفين بالذّنب ينهش قلبه، ويعضّ روحه الصّغيرة.

في المساء في درب العودة إلى السّوق استوقف والده الذي ينام كفّه الصّغير النّاعم في كفّه الكبير الخشن الدّامي، وقال له: «أبي، أرجوك لا تعد للعمل في تلك المزرعة، أنا لا أريد بنطالاً جديداً للعيد، لقد كبرتُ، والكبار لا يريدون ملابس جديدة للعيد».

حَجَر

ينادي والده باسم (ديبو حبيبي)؛ فهو مثل غيره من النّاس يرى والده (ذياب) صغيراً في سنينه السّبع عشرة على أن يكون زوجاً وأباً وراعياً لأمّه الأرملة. يتمتّع عندما يحمله والده على كتفيه، ويهزّه كأمير يمتطي ظهر تنين سحريّ.

يحرمه والده من حمله فوق كتفيه عندما يخرج ليرجم بحجارته الجنود الصّهاينة في مناوشات لا تنتهي معهم ليمنعهم من دخول الحارات القديمة أو لتأخير وصولهم إلى مكان وجود فدائيين حتى يتيح الفرصة لهم للهرب من وجه أعدائهم دون أن يُقبض عليهم. ينتظر حتى يكبر حتى يستطيع أن يرافق (ديبو حبيبي) في واجب رجم الصّهاينة بالحجارة والموت.لكن (ديبو حبيبي)لم ينتظره حتى يكبر؛فقد عاد محمولاً على الأكتاف بعد أن قنصه صهيوني محتلّ وهو يرجم الجنود الصّهاينة بالحجارة.كانت هناك ابتسامة كبيرة على وجهه وهو يغلق يده على الحجر الأخير الذي لم تمهله الطّلقات حتى يرجم به من سرق أرضه.

أسرع إلى كف يمين والده،وفتحه على عجل،وأنتزع الحجر منه،وخبّأه في جيبه،وهمس في أذن والده :» (ديبو حبيبي) لقد كبرتُ،غداً سأخرج لرجم هذا الحجر في وجه الجنود الصّهاينة».

زيتون

الأخ الأكبر قال لأخيه الصّغير وهو يشرح له باهتمام مغزى أهمية الدّفاع عن بستان الزّيتون الذي يملكون في أعالي جبال جرزيم الفلسطينيّة: «هذه الأشجار ليست أشجاراً كما تبدو،كلّ شجرة تنمو على قبر فدائي،فكلّ فدائي عندما يموت يصبح شجرة زيتون».

أجال الأخ الصّغير نظرة عجلى في المكان،فأدرك أنّ بستانه هو جبّانة عملاقة للفدائيّين،شعر بفخر لأنّه الموكل برعاية هذه القبور الأشجار،وقال بنبرة وقورة موغلة في الإدراك: «ولذلك شجر الزّيتون هو شجر مقدّس؛فهو شجر الفدائيين الفلسطينيين».

شجرة

الجرّافات المدرّعة الصّهيونيّة هاجمت على حين غرّة أشجار الزّيتون في حقل الحاجّة (فريزة)،خلعت الكثير منها بعد عناء،الشّجرة الكبيرة العملاقة استنجدتْ بأثيرتها الحاجّة

(فريزة) التي هرولت إليها على الرّغم من كبر سنّها،وغطّتها بملاءة رأسها،وأخذتها إلى حضنها،وشدّتها إلى عظامها حتى كادت تنغرز فيها.

لقد كانت مذبحة للأشجار الشّهيدة التي تهوي أرضاً تسحلها متاريس الجرّافات وجنازيرها،إلاّ إنّ هذه الشّجرة قد رفضت أن تُغتال،انبلج ساقها عن مرقد في داخلها،ابتلعتْ الحاجّة(فريزة)،وعصبتْ أعالي أغصانها بطرحتها البيضاء،وانبرتْ تدوس الجرّافات بجذورها العملاقة التي شلعتها من أعماق تراب الأرض،فعلقتْ بها صخور وكتل ترابيّة وحجارة.

هرب النّاجون القليلون من الصّهاينة من وجه هذه الشّجرة الفدائيّة،ورفضوا أن يعودوا من جديد إلى حيث تنتصب الشّجرة الفلسطينيّة المقاتلة،وأسموها على حذر وكره وتوجّس (الشّجرة الملعونة).

الوليد

هذا الوليد جاء في يوم رحيل والده عن الحياة،وُلد على المعبر الذي يفصلهم عن أقرب مشفى،نزل من بطن أمّه على إسفلت الشّارع العموميّ بعد أن جرّه الطّلق خارج رحمها على كره منها،وهي تنتظر أن يُسمح لها بأن تصل إلى المشفى.

الجنود الصّهاينة أخرجوها وزوجها من السّيارة الأجرة التي يستقلانها للوصول إلى المستشفى،وأجبروهما على أن يركعا أرضاً لإذلالهما،هي تكوّمت بعجز على الأرض تكابد صعقات طلق تمزّق لحمها،وزوجها رفض أن يركع أمامهم بذل،فأردوه قتيلاً بطلقات ناريّة خطفتْ شعلة الحياة من صدره.

عاد الأب والابن الوليد إلى بيت الأم الجدّة محمولين على الأكتاف؛الأم الجدّة غسّلت ابنها،وحمّلته في نعشه ليُصار به إلى قبره الجنّة،لم تحزن عليه،ولم تودّعه بدمعة،بل ودّعته بابتسامة تليق بأمّ شهيد،وانكفأت تحمّم حفيدها الوليد وتطعمه،وتصلح شأنه،وتنتظره ليكبر كي يأخذ بثأر ابيه الشّهيد الذي قتله الصّهاينة في يوم مولده.

صَمَمْ

أصابه الصّمم مذ كان صغيراً بضربة شمس، أعيا الأطبّاء علاجاً وتكهّناً بعلاج صممه، ولكنّه ظلّ أصم. لم يحلم بأن يستردّ سمعه، وفضّل الهدوء المطلق على صوت جعجعة الغرباء ونعيقهم في وطنه فلسطين، لكنّه كان يتمنّى لو يستطيع أن يسمع صوت طفله الصّغير الذي تميّز بجميل ترتيله للقرآن الكريم، أراد برغبة متفجّرة أن يسمعه يرتّل القرآن ولو لمرّة واحدة في حياته، لكن الصّمم حال دون تحقيق رغبته.

تفجير كبير في باحة الحيّ هزّ أركان البيوت، فاخترق أذنه ليسمعه، التّفجير نفذ من أذنيه، وعبث بضلوع صدره، وشلع قلبه، الآن عاد يسمع من جديد، لقد سمع صوت الانفجار الذي اغتال ابنه الوحيد ذا الصّوت الملائكي في زاوية حفظ القرآن الكريم.

صيد

البحر اعتاد على كلامهم وترانيمهم وأحلامهم وطقوسهم في الصّيد والأكل والبيع والشّراء، حتى دعاؤهم في لحظات هيجانه يطربه، ويجعله يضحك كثيراً من كلماتهم المستدرّة لستره ورحمته وعطاياه. هو يعشقهم، من الآلاف السّنين يعشق أهل السّاحل الفلسطينيّ الذي عقد معهم حلف محبّة منذ الأزل.

البحر يحفظ تفاصيل معاناتهم، ويحرّك بحزن وأسىً لبّاد شعره المائيّ المخضوضر بزبد زلق كلّما منع الصّهاينة الصّيادين من الوصول له.

هو يدّخر لأصدقائه الصّيادين الفلسطينيين قصصه ودرره وحنانه والكثير من السّمك، ويترنّم طويلاً على صوت غنائهم الذي يدغدغ حبوره المتّسع.

الآن هو يعيش وحدة مؤلمة وهو يرى الصّيادين الفلسطينيين لا يستطيعون أن يقتربوا منه بحرمان من الصّهاينة، يحتضن سفنهم المهجورة، ويضمّها بلجّة عملاقة إلى صدره، ويغور في أعماق مائه.

هذا الصّباح رأى الصّهاينة يُغيرون على لججه، ويحاولون أن يسرقوا سفن الصّيادين

الفلسطينيين،يغضب انتصاراً لأولئك الصّيادين المسالمين،يرفع سفنهم إلى أعلى هضاب لججه،ويخسف البحر بالصّهاينة،فيردّهم من جديد قردة وخنازير بحريّة،ويرسلهم يسعون في البحر طعاماً لوحوشه وأسماكه.

يضحك البحر كثيراً إذ يُرسي سفن الصّيادين في خليج صغير في السّاحل في انتظار أصدقائه الصّيادين أصحاب أغاني الصّيد وترانيم السّمك.

القائد

هو قائده الأعلى في البيت والشّارع وزقاق المخيّم،يقلّده كيفما اتّفق،ويفرح إن رأى في عينيه نظرة رضا عنه،هو أخوه الأكبر،يكبره بعامين فقط،وبذا يكون عمره سبعة أعوام،ولكّنه يتّخذه معلّمه وعرّابه وقائده.

أمره بأن يرجم الجنود الصّهاينة بالحجارة لأنّهم أشرار،فما تأخّر لحظة عن إطاعة أوامره،فكلّما رجم صهيونيّاً بحجر برقت عيناه بالفخر؛لأنّه يطيع أخاه(عبد الله) قائده الأعلى في الحياة.

كاد يظفر بغنيمة رجم الصّهاينة،ويفرّ هارباً كعادته،ولكن يداً عملاقة مشعوعرة هدمت كتفه عندما أمسكت به،وفي طرفة عين كبّلته أيدي الجنود،وأمرته بأن يعترف باسم من حرّضه على رجمهم،لم يراوغ في الإجابة،وقال بفخر طفولي عريض متحمّس:»إنّه أخي (عبد الله) من أمرني بذلك«.

تحرّكت جنود حانقة وآليات مصفّحة كي تنشب أظفارها في عنق(عبد الله) المخرّب كما نعتوه.حاصروا بيته،وأمروا (عبد الله) عبر الأبواق بأن يخرج لهم مستسلماً رافعاً يديه حفاظاً على حياة أخيه الأصغر المنشبة أظافرهم الشّيطانيّة في رقبته،وحماية لبيته الذي سينسفونه دون تردد إن مضت ثلاثون ثانية دون أن يخرج إليهم مستسلماً.

سرعان ما خرج (عبد الله) رافعاً يديه إلى أعلى،وأصابع كفّ يمينه تمسك مصاصة حلوى يشفق أن تقع منه أرضاً، فيخسرها.

أخيراً قبض الجيش الصّهيونيّ على القائد الأعلى للمقاومة، واسمه الطّفل (عبد الله) ذو السّنين السّبع والبنطال الطّفوليّ القصير ومصاصّة الحلوى!

إسعاف

هي ليلة مثل كلّ ليالي الفلسطينيين تحت القصف الصّهيونيّ، هي ليلة وحيدة خائفة يعيشها أهالي المدينة تحت فيضان من النّار والحديد والحصار الخانق.

(هاشم أبو الخير) المسعف يصمّم على أن ينقل المصابين بصحبة طاقمه التّمريضي على الرّغم من استحالة الاستمرار في ذلك تحت وابل جهنميّ من النّيران التي تمطرهم بالموت والنّار والجزع.

سريعاً ما التهم الوابل طاقمه، ولم يعد يملك سوى عزيمته ومقود سيارة الإسعاف التي يقودها، وقد تكدّست بآهات الجرحى والأشلاء التي فقدت أصحابها، وتاهتْ عنهم.

قذيفة هوجاء عتيّة اقتلعت رأسه من فوق جسده، تطاير الرأس بعيداً غير آبه بآلام التّدحرج على حصى مشتعلة، أمّا الجسد فاستمرّ يقود سيارة الإسعاف بإصرار وشجاعة ليوصل المصابين إلى أقرب مستشفى فلسطينيّ.

أُخوة

اعتاد أن يقرأ سورة الملك على نفسه كلما خرج ممتطياً عزمه، شاهراً إباءه، حاملاً بندقيته، مرخّصاً روحه، محقّراً الحياة الذّليلة، ليقاتل عدوّاً واحداً يعرفه جيّداً.

أمّا هذا الصّباح فقد قرأ على نفسه أسفار اللّعنة، وسبّ كلّ من دفعه إلى أن يحمل السّلاح في وجه أخيه الفلسطينيّ. هولا يفهم السّياسة، ويمقتها كثيراً، ويرفض أن يُطلق الموت على صدر فلسطينيّ مهما خالفه الرّأي السّياسيّ أو الفكريّ تحت ألوية صراعات الفصائل الفلسطينيّة المتناحرة على سدانة المراكز والنّفوذ والامتيازات.

رفض أمر القتال أكثر من مرّة، وعندما دُفع دفعاً إلى ساحة نحر الأخ، اعتكف في بيته، وخبّأ

سلاحه ورصاصته لأجل عدوّه الصّهيوني.

أُبوّة

يحلم منذ سنين بالأبوّة،يريد أن يكون أباً لطفل من زوجته(عزّة)لا من امرأة أخرى،أنفق كلّ ما حصل عليه من مال بكدّ جبينه لأجل إجراء عمليّات التّلقيح الصّناعي على أمل أن يحظى بكلمة بابا في يوم ما.لكن عمليّة التّلقيح تؤول في كلّ مرّة إلى خيبة أمل تجرجر أذيالها الثّقيلة على صدره وصدر زوجته التي تحلم بأن تلد فلسطينيّاً كما تلد النّساء في وطنها الفلسطينيين لأجل النّضال.

ظلّ يحلم بالأبوة،وهي ظلّت تدّخر المال مع زوجها لأجل المزيد من عمليّات التّلقيح الصّناعي.

هجوم جويّ يشنّه العدوّ الصّهيوني على المدرسة التي تعمل زوجته فيها محاسبة في القسم الإداريّ يحصد أرواحاً كثيرة،وروح زوجته من تلك الأرواح.

لقد غادرته دون وداع ودون ولد له منها،وجد في حقيبة يدها بعد انقضاء عزائها ورقة تحليل حمل تبشّر بحملها،لقد كانت مؤّرخة بيوم استشهادها،لا بدّ أنّها كانت ستخبره بالأمر فور عودتها من عملها في يوم مقتلها،لقد قتلوها وقتلوا ابنهما في أحشائها،لقد أصبح الآن أبا الشّهيد الذي أغتاله عدوان جويّ في أحشاء أمّه،وحرمه من أن يقول لأبيه كلمة بابا ولو لمرّة واحدة في حياته.

شجرة عائلة

كلّفت معلّمة الرّياضيّات طالباتها الصّغيرات بأن ترسم كلّ واحدة منهنّ شجرة عائليّة واجباً منزليّاً كي يعرفن رياضيّاً بشكل عملي معنى التّوالد والتّفرّع.

الطّفلة الفلسطينيّة الصّغيرة رسمت شجرة عائليّة كبيرة بمساعدة أمّها وجدّتها لأبيها وعمّتها وزوجة خالها اللّواتي يسكنّ في بيتهنّ منذ أفقدهن الاحتلال بيوتهنّ وأزواجهنّ

الرّاعين لهنّ.

في اليوم الثّاني كانت الطّفلة الفلسطينيّة الصّغيرة الأكثر فخراً بين زميلاتها وهي تحمل شجرة عائليّة تتوافر على أعداد كبيرة من المجاهدين والأبطال والشّهداء والمعتقلين.

اختالت بشجرتها العائليّة، ولم تلجم خيلاءها إلاّ عندما رأت كلّ زميلة من زميلاتها تحمل شجرة مشابهة لشجرتها، ولا تقلّ عنها امتداداً وتفرّعاً وازدحاماً.

عندها رضيت بهزيمة عدم تفوّقها، وجلست في مقعدها بصمتْ، وبرت قلمها الرّصاص، وغدتْ ترسم فروعاً جديدة لأغصان شجرتها، وبدأتْ تكتب بأناة واهتمام أسماء بناتها وأبنائها المنتظرين الذين ستنجبهم في المستقبل ليجعلوا شجرة عائلتها الأكبر تضحية ونضالاً.

شهيد

نذرتْ حياتها وأحزانها وشبابها لتربية سبعة عشر شاباً وشابة، أحدٌ منهم لم يكن ابنها الذي زُرع في رحمها حتى تكوّن، وغادره ليرى الحياة انطلاقاً منه، فجميعهم أولاد أخواتها وإخوانها الذين ربّتهم في غياب أب شهيد أو أختٍ معتقلة أو بيت هدمه الاحتلال الصّهيوني، إلاّ (رمزي) فهو ابنها دماً ولحماً ورحماً، فهو تذكارها النّفيس من زوجها الحبيب الذي ابتلعه النّضال الفلسطيني في لبنان، فلم يعد أبداً، قيل لها إنّه حيّ يرزق في إحدى بقاع الدّنيا، يعيش لهدف واحد وهو تدريب أشبال النّضال الفلسطيني، لكنّها تعرف أنّه في بطن الأرض لا على وجهها، فلا شيء غير الموت يمنعه من أن يرى ابنه (رمزي) الذي خرج على شاكلة والده شجاعة وطيبة وحبّاً لوطنه.

خرج (رمزي) منذ أيام في عمليّة انتقاميّة من الصّهاينة بعد قتل المستوطنين لخمسة أطفال من بلدتهم، لقد نجحت مهمّة الانتقام، ولكن (رمزي) لم يعد منذ خرج إلى أن أعاده الصّهاينة مكوّماً في كيس بلاستيكي أسود، عرضوه على نساء الحي كي يكتشفوا هويّته كي ينتقموا من أهله أجمعين كعادتهم، فيعتقلون أهله، وينسفون بيته، ويلقون بأسرته

في الشّارع.لكن نساء الحي أنكرن جميعاً معرفتهنّ بهويّته هرباً من انتقام الصّهاينة منهم ومن أهله،لقد اتّفقوا جميعاً منذ زمن على إنكار معرفتهم بأيّ فدائيّ يُستشهد أو يقوم بعمليّة فدائيّة كي ينجو الباقون من بطش الصّهاينة بالضّعفاء والعزّل.

آخر بيت في الحي كان بيت عائلة (رمزي)،عرضوه على أمّه،تحسّست رحمها من فوق بطنها بلوعة،وقالتْ للصّهاينة بكبرياء لا يركع لدمعة أو صرخة فجيعة،ولا يقبل أن يُباد الجميع في لحظة صرخة من قلبها الدّامي:»لم أره من قبل في حياتي،لا أعرفه أبداً،جميعنا هنا لا نعرف من يكون».

عروس البحر

منذ طفولتها كانت تلجأ إلى بحر غزّة تناجيه،وتهمس له،بينها وبينه أسرار وحكايات لا تذاع.لطالما ظنّت أنّها عروس من عرائسه،وأنّها غادرته لسبب تجهله،وسوف تعود إليه في يوم ما لتعيش في ممالكه المائيّة الجميلة حيث لا عدو صهيونيّ يقصفها،ولا حصار يخنقها،ولا ظلم أو فقر أو بطالة أو مرض بسبب الاحتلال الصّهيونيّ يهصرها.

اسمها (حوريّة) على اسم جدّتها لأبيها،وهذا الاسم يؤكّد لها أنّها من سلالة عرائس البحر لا من سلالة الإنس.تختال بلا تردّد على صديقاتها بأصولها المائيّة التي تفترضها،وصديقاتها يقبلن أكاذيبها وأوهامها مادامتْ ستغني لهنّ ما يطلبن من أغانٍ داثرة بصوتها الحنون العميق كهدير بحر دافئ في ليلة صيفيّة.

لم تكن عند حبيبها البحر عندما بدأت طائرات العدوّ الصّهيونيّ تقصف حيّها والأحياء المحيطة به دون رحمة،بل كانت في السّوق المتاخم له،المباني التي هبطت أرضاً وأشلاء القتلى من شعبها الفلسطينيّ أوصدت أمامها دروب العودة إلى بيتها،لم تجد أمامها سوى درب البحر لتسلكه.

كانت جريحة بشظايا أصابتها في جسدها دون قدميها،ولكنّ الخوف نفث فيها قوّة لا

تفتر تدعوها للهروب إلى حبيبها البحر، كان الطّائرات توغل في قصف المباني والشّوارع وكلّ ما يتحرّك أو لا يتحرك، وهي تطير أمامها كريشة صغيرة في مهبّ عاصفة جهنّميّة.

ما كادت تصل إلى البحر الذي يضطرب سطحه بأزيز الطّائرات حتى أصابتها قذيفة صهيونيّة هدرتها أشلاء صغيرة، ما شعرتْ بألم، وفاضتْ روحها كزبد بحر، لقم البحر الباقي من فتات جسدها، وابتلعه، وغار به إلى أعماقه ليدفن عروسه الجميلة في أحشائه الحنونة بعيداً عن العدوّ الصّهيونيّ الذي اغتال عروسه الجميلة ذات الصّوت الرّنان الحنون.

جدار

هذا الجدار العنصريّ العازل حرمه من مدرسته التي يحبّها، نقله والده إلى مدرسة أخرى في ظاهر مدن الجدار الفاصل، لكنّه يصمّم على أن يذهب إلى مدرسته التي يحبّها، يتأبّط كتبه، ويمّم نحو مدرسته القابعة خلف الجدار، ويناجي مدرسته، وعندما ييأس من سماع أيّ ردّ منها يقرّر أن يخترق الجدار العازل، يدفعه الجنود الصّهاينة بعيداً عن بوابة العبور المدجّجة بالحرس والسّلاح والكلاب، لكنّه يأبى أن يبتعد عن البوّابة، يطلق الجنود كلابهم المسعورة عليه لتنهش لحمه البضّ الطّري دون رحمة، تقطع الكلاب بأنيابها النّجسة مزقاً من لحمه، تغادره الحياة مسلولة من بين قطع لحمه المنثورة أرضاً، ويظلّ يحلم بأن يعبر بوابة الجدار العازل ليذهب إلى مدرسته التي يحبّها.

خُرّافيّة[1]

لا تصدّق جدّتهم أنّ جدّهم (أبا حسن) قد خرج يوماً في أيام الموت الفلسطينيّة، ثم لم يعد حتى هذه اللّحظة، بحثت عنه لسنين دون فائدة، وكي لا تطير مجنونة في الشّوارع، فتضيّع أبناءها يتماً وجوعاً وغربة ووحدة قرّرتْ أن تحفظ عقلها عليها، لكنّها ظلّت تروي للجميع (خرّافيّة أبي حسن).

١- الخرّافيّة هي الحكاية باللّهجة الفلسطينيّة.

ظلّت تروي لأبنائها وحفدتها (خرّافيّة أبي حسن)،وظلّوا يسمعونها دون ملل،فـ(أبو حسن) كان فارس الفوارس الذي يقاتل الصّهاينة في كلّ مكان،ولا يموت،الجميع آمن بـ(خرّافيّة أبي حسن)،وظلّوا ينتظرون عودته كي ينقذهم من عذابهم،لقد كبروا وهم ينتظرون عودة الأب الجدّ الذي لا يؤوب.

بعد ثلاثين عاماً عاد الجدّ(أبو حسن) كوماً من العظام في كيس قطني أبيض بعد أن أفرج الصّهاينة عن رفاته،دفنه الأبناء والحفدة في عزاء مهيب حضره كلّ من كان يحفظ (خرّافيّة أبي حسن)،ثم عادوا إلى بيت العائلة ليسمعوا الجدّة تروي لهم خرّافيّة جديدة من (خرّافيات أبي حسن).

عانس

لم تعدْ تحلم بذلك الفارس الورديّ الذي يطرق مخيّلات النّساء وأحلامهنّ وأسرارهنّ قبل أن يسكن نوافذ قلوبهنّ المشرعة على انتظار شوكيّ ينخز صبرهنّ واحتمالهنّ.

حلمها الوحيد الغائر في روحها هو أن ترى من خلف نافذة غرفتها مآذن المسجد الأقصى وقبابه،وأن تسمع منها صدح الآذان والتّكبيرات.

حبّها لمدينة القدس حيث وُلدت وأفراد عائلتها قد تفوّق في نفسها على حبّ الرّجل والنّسل والحياة ذاتها.

لم تجد في القدس الرّجل الذي تحلم بالزّواج منه،وكي تبحث عنه خارج مدينتها كان عليها أن تخاطر بهويّة إقامتها الدّائمة التي تسمح لها بالإقامة في المدينة؛فالقيود التي يفرضها الصّهاينة على عرب مدينة القدس تجعلهم يعيشون في سجن كبير إن خرجوا منه لا يمكنهم العودة إليه،وإن أحبّ أحدهم آخر خارج المدينة في الضّفة الغربيّة أو خارج فلسطين فهذا يعني أن يخسر للأبد هوية إقامته الدّائمة في القدس.

في إحدى زياراتها القليلة إلى إحدى العواصم العربيّة عشقت فلسطينيّاً يحمل جنسيّة عربيّة،ولكنّها ضحّت بحبّها له كي تطير عائدة إلى مدينة القدس،ولا تخسر إقامتها فيها

ما دام من سابع المستحيلات أن تحصل له على هوية أو تصريح إقامة دائمة في مدينتها إن تزوّجا.

ذلك الشّاب الفلسطينيّ الذي يعيش في الشّتات كان حبّها الأوّل والأخير في الحياة، لكن حبّها الفطريّ لمدينة القدس قد انتصر على حبّها الآدمي الخالد لحبيبها المهجّر البعيد.

لقد ولّى في طريقه خائب الأمل بعد أن رفضت الزّواج به، وسرقته الدّروب بعيداً عنها، كما سرقت السّنون شبابها وآمالها وأحلامها، لكن لا أحد استطاع أن يسرقها من حبّها لمدينة القدس التي لا تستطيع أن تعيش بعيداً عنها حتى لو كان ذلك لأجل أن تعيش في حضن فارس أحلامها الذي حظي بعشقها.

قُرعة

القصف الصّهيونيّ مستمرٌّ منذ أيام طويلة تجاوزت الشّهر ونيف، وهي وأطفالها جياع في شهر رمضان المبارك كما أهل غزة جميعهم جياع في هذا القصف المحاصر لهم، أُعلن منذ لحظات عن هدنة لمدة ساعتين، هذه فرصتها كي تخرج لإحضار بعض الخضار والخبز لإطعام أبنائها الأربعة التي يعيشون معها منذ هجرها زوجها.

ابنها الكبير الذي لم يتجاوز عمره الثّلاثة عشر عاماً يصمّم على أن يخرج بنفسه لشراء الطّعام المطلوب لأنّ موته في حالة حدوث اختراق للهدنة هو المصيبة الأقلّ على إخوانه من فقد أمّهم إن اغتالتها الرّصاصات، وهي تصمّم على الخروج وشراء الطّعام المطلوب لأنّ موتها أهون عليها من أن تراه مقتولاً في إحدى الطّرقات.

يطول الجدال بينهما، ويتّفقان على أن يقترعا على من يخرج منهما لشراء المطلوب، يكتب كلّ منهما اسمه على ورقة صغيرة مربّعة، ويرميان الورقتين على طاولة المطبخ بعد طيّهما بشكل متماثل، الابنة الصّغيرة تختار ورقة من الورقتين كيفما اتّفق، تقرأ الأم الاسم المكتوب على الورقة المُنتقاة، إنّه اسم ابنها المكتوب فيها، تطوي الورقة على عجل قبل أن تتسلّل إليها عينا ابنها، وتمزّقها، وتدسّها في جيبها، وتقول لأولادها بصرامة: «لا داعي

لخروج أحدنا،لا يزال عندنا بعض العدس المطحون،ما رأيكم أن نصنع حساء عدس لذيذ؟».

قصّة حبّ

يحبّها وتحبّه،وكلاهما يحبّان فلسطين،من صغرهما علقا الحبّ المشتعل،فتعاهدا على أن يلازم أحدهما الآخر طوال الحياة،وأن يرحلا عنها سويّاً،حفرا عهدهما على جذع شجرة زيتون في حقل الزّيتون الذي تملكه عائلته منذ قرون كثيرة ما عاد يحصيها عددا.

كان من المخطّط أن يتزوجا في الخريف المقبل،ولكن العدوّ صادر أرضهما قبل أن يأتي الخريف المنتظر،وجرّفها بعد أن اقتلع زيتونها،ثم ألقمها أطناناً كثيرة من الإسمنت لتكون أساسات لمستدمرات صهيونيّة تأوي الغرباء الغاصبين.

قرّرا في لحظة عشق كاملة أن يمضيا في درب عشقهما الأكبر،بحزامين ناسفين فجّرا البيوت المستدمرة الوليدة فوق أرضهما بمن فيها من الغرباء،وتناثرا هباء مقدّساً فوق أرضهما التي ماتا عشقاً لها.

قدمان

خسر قدميه برصاص العدوّ الصّهيونيّ في اعتصام طلابيّ ضدّ تدنيس المسجد الأقصى والحفر تحته تمهيداً لهدمه،وخسر مع خسارة قدميه دراسته في جامعة النّجاح لعجزه عن الذهاب إليها،كما خسر حريّته وقدرته على الحركة وحلمه بالزّواج من ابنة خالته (بهيّة) التي أحبّها منذ طفولته،وتأبى عليه نفسه أن تتزوّج به عطفاً عليه.لكنّه لم يبالِ بأيّ من خسائره.

أمضى أشهراً يصنع له قدمين من خشب الزّيتون،وعندما انتهى من صناعتهما امتطاهما بفرح،وقصد المسجد الأقصى ليشارك - من جديد- باعتصام خارجه احتجاجاً ضدّ تدنيسه من العدوّ الصّهيونيّ.

فيلم خيالي

جلس خمستهم متسمّرين مشدوهين أمام شاشة التّلفاز يحضرون فيلماً لا يمكن أن يعدّوه بعرف طفولتهم ولغة حرمانهم إلاّ فيلماً خياليّاً،رأوا الأطفال في الفيلم يلبسون الملابس الزّاهية في العيد،ويذهبون إلى المدارس بأمان،ويربّون العصافير الجميلة المغرّدة في أقفاص خشبيّة دقيقة الصّنع منصوبة على شرفات منازلهم.

رأوا الآباء يذهبون إلى العمل فرحين نشيطين،ويعودون في المساء إلى بيوتهم محمّلين بالحلوى والأمل والأوراق النقديّة وحكايا السّمر.رأوا الأمّهات يصنعن الطّعام بترنيمات الفرح،ولا يتّشحن بالسّواد على أبٍ شهيد أو أخ معتقل أو أب مطارد.كانت حياة رغيدة لا يعرفونها في وطنهم فلسطين.

تجرّأ الطّفل الصّغير على أن ينزع نفسه من لذّة متابعة الفيلم الخيالي،وسأل أمّه بعتاب ممطوط: «لماذا يا أمي لا نعيش حياة جميلة مثل هؤلاء الأطفال؟!»

كدّرتْ الأم قسمات وجهها كي تتقّنع خلف خشونة صلبة مصنوعة بدل أن تغرب في نواح محرور،وقالت له:»لأنّنا نعيش في فلسطين،والعدوّ الصّهيونيّ يكره الأطفال الفلسطينيين».

سأل الطّفل من جديد أمّه بدهشة: «لماذا يكره العدوّ الصّهيونيّ الأطفال الفلسطينيين يا أمّي؟!»

تنهّدت الأم الفلسطينيّة،وعقدت حزناً فوق حزن،وقرّبت ركبتيها من بعضهما،وأهبطت طفلها عليهما،وطبعتْ قبلة على جبينه،وقالت له:»لأنّكم أملنا وأمل تحرير فلسطين،أنتم من سوف تطردوهم من وطننا عندما تكبرون».

عيد أمّ

اليوم هو عيد الأمّ، وأمّها قد رحلت إلى العالم الآخر بقصف صهيونيّ اغتالها وسريرها

وبيتها الذي بنته بسنين من التّعب والكدّ والحرمان.

اعتادتْ أن تهدي أمّها زهرة في كلّ عيد أمّ،وأن تلقي بنفسها في حضنها الكبير الدافئ المليء بالشّحم والحب ورائحة البرتقال الفلسطيني الذي تعمل في بياراته ليل نهار.

قرّرت أن تهدي أمّها زهرة عيدها،وأن ترتمي في حضنها رغم أنف الموت،رسمتْ بقطعة جير أبيض دائرة كبيرة على أمها الأرض،هي دائرة بحجم حضن أمّها الآدميّة،واستلقتْ في حضنها،وتكوّرتْ أرضاً كما الجنين،وطفقت تشمّ رائحة أمّها المضمّخة برائحة البرتقال.

لُهاث

الحالمون بالزّواج في غزّة جميعهم أكانوا نساء أم رجالاً يلهثون قسراً في مساحة صغيرة وأحلام كبيرة غدت ضيّقة إلى حدّ اعتصارهم.

هو مثلهم يعيش عذاباً قاهراً موصولاً اسمه توفير طلبات الزّواج،ما عاد يحلم ببيت جميل وأثاث فارهٍ وعرس بهيج وحفلة حاشدة،كلّ ما يبغيه الآن أرضاً غرفة بـ(سمر) حبيبته وابنة خاله،يريد سقفاً يظلّهم،ويسير فرح وملابس ساترة وحضور مشاركين وفق ما تيسّر من فتات الأحزان والانتظار المتسرّب من خنق العدو الصّهيوني.

اللّهاث يسكن روحه،ويبتلعه،ويجعل منه لعبته في عالم الوهم،لا غرفة موجودة للاستئجار،لا سلع موجودة للشّراء في الأسواق المحاصرة منذ سنوات،ولا نقود لتيسير الأمور،ولا عمل متوفّر،ولا مدعوين إلى عرس يستطيعون حضور زفافه بسبب حلقات الحصار والحظر والاغتيال والاعتقال والدّروب المغلقة المميتة.

الدّروب جميعها مغلقة في وجهه وفي وجه زواجه من حبيبته (سمر) التي بدأت العنوسة تأكل أملها كما تأكل آمال معظم أصدقائه وأقاربه وأترابه ومعارفه الذين يحلمون بالزّواج المستحيل في هذه المدينة التي يطبق العدوّ الصّهيوني على تلابيب روحها منذ سنوات،وتناضل باستبسال لتظلّ تتنفّس الهواء على ذمّة الحياة.

يفاجئ (سمر) وهي تجلس أمام بيتها المتهاوي،وتطلّ على بحر غزّة تطعمه حزنها،يقترب

منها، ويهمس في أذنها التي تتوارى خلف جديلتها الكثّاء: »أتتزوجينني؟«

تبتسم له، وتهتف بسرور دون تردّد: » نعم، أتزوّجكَ«.

-«لكن لا غرفة أستطيع أن أؤمّنها لزواجنا».

-«نتزوج هنا على ساحل البحر، ونعيش بين صخوره».

مدرسة

المدرسة هي المكان الأقدس في عوالمه جميعها، لا يحبّ أن يغادرها على الرّغم من بنائها القديم وافتقارها لجلّ الخدمات الأساسيّة والازدحام الطّلابي الخانق فيها، ولكنّه يعشقها، هي دربه إلى أن يصبح طبيباً كما يحلم دائماً، وكما تريده أمّه أن يكون عندما يكبر.

صفّه الصّغير أصبح أكثر اكتظاظاً بعد أن أصبح مكان إقامة له ولأسرته ولبضع عائلات من أقاربه وجيرانه بعد أن قصف العدوّ الصّهيونيّ حيّهم، وألجأهم جميعاً إلى العراء.

منظّمة الإغاثة الدّوليّة التي تمتلك مدرستهم سمحت للمنكوبين الذين فقدوا بيوتهم بأن يقيموا في المدرسة إلى حين ميسرة.

الآن صفّه أصبح بيتاً لهم أجمعين، لم يظلّ من ملامحه الصّفيّة سوى سبورة خضراء باهتة عليها بضعة أسئلة رياضيّة تركها معلّمهم مصلوبة على اللّوح كي ينقشها الجميع في كراريسهم واجباً بيتيّاً لعلّهم يجدون حلولاً لها.

لم تتح الفرصة له لحلّها بسبب القصف الإبليسيّ الذي أمطرهم الصّهاينة به، وقد فقد دفاتره وكتبه وحقيبة مدرسته في هذا الاعتداء الإباديّ.

منذ أيّام وهو يحدّق طويلاً في الأسئلة المطرّزة بعناية على السبّورة، الآن استنار عقله بنور يقوده إلى الإجابات الصّحيحة، ينقضّ على الأسئلة المعلّقة على السّبورة يحلّها بتركيز واهتمام يليق بفتى فلسطينيّ يريد أن يدرس، وأن يجتهد ليصبح طبيباً مميّزاً عندما يكبر.

وجه

اعتاد على أن يرى وجهه البريء الأسمر الهادئ المغرق في صمت عميق وهو يراقب عن بعد أطفال المستعمرين الصّهاينة عبر الأسلاك الشّائكة التي تُحيط ببيوتهم، وتفصلهم عن بستان الزّيتون الباقي الوحيد لهم بعد مصادرة أرضهم وأراضي أقاربهم وأراضي الكثير من أهل قريتهم لبناء هذه المستدمرة.

يراقب الأطفال طويلاً دون ملل، يتابع حركاتهم وسكناتهم جميعها، ويتفحص ألعابهم الجميلة الملوّنة، ويحرّك لسانه بتمتمات خفيضة غير مفهومة، يقترب منه، ويربتُ على كتفه، يحدّق في وجهه، هو لا يعرف ابن من يكون هو، لكنّه متأكّد من أنّه قد رأى وجهه كثيراً في دروب القرية، يسأله بعطف ينزلق إليه من جسده المديد الطّول لينصبّ على شعر رأسه ربتاً: «هل تتمنّى أن تكون عندكَ ألعاب جميلة مثلهم؟ هل تريد أن تذهب للّعب معهم؟»

يحرّك الطّفل رأسه يمنة ويسرة مومئاً بالرّفض، ويقول: «أنا لا أريد أن أذهب للعب معهم، أنا أقف هنا لأحصي الأرض التي سرقوها منّا ليلعبوا عليها، هناك شجرة زيتون صغيرة من زيتونات حقلنا لا تزال على قيد الحياة، أنا من زرعها هناك قبل أن يسرقوا الأرض منّا، أريد أن أسترجعها في يوم ما».

نفق

النّفق هو من سرق أمّه، لقد عبرتْ وأخوها خلاله إلى الأراضي المصريّة بشكل سريّ وغير قانوني، كي تعالج أخاه من المرض العضال الذي يفترسه. كان يجب أن تعود عبره بعد أسبوعين من ذهابها، ولكن القصف الصّهيوني على غزّة قد دمّر هذا النّفق، وقطع الدّرب دون رجعتها.

كلّ يوم يقف على عين النّفق التي غمرها التّراب، وأخمد أنفاسها، ودفنها في داخل

التّراب،ينتظر عودة أمّه بأعجوبة ما تجعلها تخترق هذا الرّدم المتداعي من الإسمنت والطّوب والتّراب.

بعد سبعة أشهر من الانتظار يخبره أخوته بأنّ أمّهم ستعود إليهم برفقة أخيهم من معبررفح الذي سيفتح لمدّة يوم واحد فقط،لا يصدّق كلامهم،ولا يذهب معهم إلى المعبر لاستقبال أمّه،ويظلّ ينتظرها أن تخرج من النّفق الذي ابتلعها،وغيّبها في المجهول.

نوم

الأحداث السّيئة جميعها التي حدثت في حياته وقعتْ له لأنّه قد نام؛كلّما غلبه النّوم داهم الجنود الصّهاينة بيته،وعاثوا فساداً فيه،وقتلوا أحداً من أسرته،أو ضربوه أو أهانوه أو اعتقلوه أو مضوا به إلى درب مجهول دون رجعة.

لا طاقة له بردّ العدو الصّهيوني بجسده الصّغير وسنين عمره القليلة العاجزة،كذلك لا يستطيع أن يهرب بأهله ومنزله وأرضه بعيداً عن الجنود الصهاينة،ولذلك قرّر أن لا ينام أبداً.

هديّة

القليل الأقلّ من المال في جيبه هو لا يكفي لأن يشتري به أيّ هدية ليقدّمها لابنته الصّغيرة في عيد ميلادها،يخمّن أنّ الفتيات الصّغيرات يحببن الهدايا الأنثويّة في أعياد ميلادهن،يستعرض الهدايا المحتملة،ويعرض عنها باستخفاف؛فهذه هدايا تليق بأيّ فتاة في العالم إلا بابنته (نجوى) التي عليها في يوم ما أن تكون أمّاً فلسطينيّة تربّي جيل الثّورة والنّصر.

نقوده القليلة مضافاً إليها ما حصّله من مال في يوم عمل شاقّ تكفي لأن يشتري لها كتاباً يغذّيها بالعلم.يشتري الكتاب بفخر واعتزاز لأميرته الفلسطينيّة الصّغيرة التي يعدّها لمهمّة كبيرة في المستقبل.

هروب

وافقت على هذا الزّواج المرتّب بشكل أسريّ كي تهرب من العذاب الموصول الذي تعيشه كما يعيشه شعبها في فلسطين،تحزم أمتعتها القليلة بفرح صغير،وهي من كانت تظنّ أنّها ستملك أكبر فرح في الدّنيا بعدما مدّت السّماء لها حبال العون والإنقاذ قُبيل الغرق بقليل،أخيراً ستهرب دون رجعة من عدوّ لا يرحم،ومن عذاب موصول لا يتوقّف،ومن معاناة تحاصرهم جميعاً في كلّ جزئيّة في حياتها،ستتزوّج من مبعد فلسطينيّ يعيش في إحدى دول أمريكا اللاتينيّة،وتذهب إلى البعيد،ستهرب دون رجعة من التّفتيش والمداهمات والاعتقالات والاغتيالات ومصادرة الأراضي وحواجز التّفتيش والحصار والتّجويع والمعاناة المبتكرة شكلاً بعد شكل لتعذيبهم،أخيراً لن ترى صهيونيّاً في الدّروب.

عانت كثيراً كي تصل بحقيبتها الوحيدة للوصول إلى هذا المعبر الأخير كي تغادر آخر محّطة في فلسطين لتودّعها دون عودة،أخوها الأكبر هو من يرافقها في المحّطة الأخيرة للوداع بعد أن نالت بصحبته جرعات العذاب الإجباريّة كاملة عبر المعابر وحواجز التّفتيش حتى وصلت إلى هذه المعبر الحدوديّ.

خطوات قليلة تخطوها بعد ختم جواز سفرها،وتصبح إلى الأبد خارج فلسطين،أخيراً سوف تنجو وحدها من ملحمة النّضال التّاريخيّة،وستدخل تاريخ الرّفاهيّة والرّاحة والعبث،تريد الفرح والأمن والسّعادة والبهجة والدّلال،لكّنها في هذه اللّحظة تشعر أنّها لا تريد أن تخرج من التّاريخ المشرّف لأجل صفقة زواج مريحة سهلة الشّروط.

تتراجع بضع خطوات إلى الخلف بدل أن تتقدّم لختم جوازها بختم الخروج،تدسّ هويتها الفلسطينيّة في جيبها باعتزاز،وكأنّها تخشى أن تُسلب منها،وهي أثمن ما تملك في حياتها،وتثني عائدة إلى بيت أسرتها برفقة أخيها،وهي تجرّ حقيبتها اليتيمة لتعيش قدرها الجميل في أن تكون فلسطينيّة صامدة في بيتها إلى أن يرحل عدوها في يوم قريب

غير عابئة بزواج يهرب بها إلى البعيد.

مقبرة

هي أكبر مقبرة تاريخيّة في فلسطين، عمرها أكثر من ألف عام، الوجوه الفلسطينيّة جميعها تنتهي في هذه المقبرة في آخر المطاف لتهجع في أرض الوطن الهجعة الأبديّة.

قرّر العدوّ الصّهيونيّ أن يجرّف المقبرة بعد تمشيطها لأجل أن يبني فيها أكبر مستوطنة في فلسطين المحتلّة.

الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات الفلسطينيّة لم تمنع آليّات العدوّ الصّهيونيّ من تمشيط المقبرة ومن ثمّ تجريفها، لقد قلعوا شواهد القبور وأشجار المقبرة بعد تدمير سورها العتيق، ثم هتكوا حرمة القبور بتجريفها، لقد انتزعوا الهياكل من مراقدها، وكوّموها في خرق أكفانها.

في اللّيل ومع هـدأة الرّقاد استيقظت الهياكل المطرودة من قبورها، ولبستْ أكفانها، وهاجمتْ أعداءها.

معطف

شهرٌ كامل والفدائيون الفلسطينيون يرجمون العدوّ الصّهيونيّ بنيرانهم، ويرفضون أن يستسلموا لهم، القذائف تنهال عليهم من السّماء من الطّائرات الصّهيونيّة، والقنابل تُلقى عليهم من كلّ حدب وصوب، وهم صامدون دون وجل، يعضّون الجوع، ويهزأون من العطش، لكن البرد هو ما يقضم عظامهم دون رحمة.

الصّدفة جعلته يحتفظ بمعطفه الرّوسيّ الثّخين في لحظة وقوعه في هذا الحصار، ولكن شريكه في حراسه هذه الجهة من القلعة لا يملك أيّ معطف، وينكمش على نفسه برداً، حاول مراراً أن يخلع معطفه عليه -ولو لبعض الوقت- ليحظى ببعض الدّفء، لكنّه كان يرفض ذلك بإصرار، ويقسم عليه أن لا يخلع معطفه لأجله أبداً.

الدّنيا بدتْ فارغة في عينيه إلاّ منهم ومن القلعة ومن ذلك الحصار الصّهيونيّ الذي يحاول مرّة تلو الأخرى أن يخنقهم ليمسحهم عن وجه الأرض كما وعد شعبه الملعون الذي يشتهي أن يفني البشر كلّهم كي يتمتّعوا بالدّنيا وحدهم.

الآن يرى تسلّلاً من جنود صهاينة،إن استطاعوا أن يخترقوا هذه الجهة من القلعة،فهذا يعني أنّهم قد حطّموا صمودها،لا وقت عنده لأن يستغيث بأصدقائه،يقرّر أن يأخذ زمام المبادرة بنفسه،يخلع معطفه على صديقه،ويقول له: «ستحتاج هذا المعطف في هذا المكان الشّتويّ البارد.أنا لن أحتاجه بعد الآن».وينطلق ببندقيته وآخر الرّصاصات التي يملكها نحو الجنود المتسلّلين في مواجهة دامية كي يردّهم عن القلعة،يظلّ ينافح دون القلعة حتى آخر طلقة يملكها وآخر نفس في حياته.

صحفيّ

جاء إلى هنا كي يكتب تقريراً جدليّاً يضجّ بصور القتلى والموتى والثّوّار والأحداث الدّامية ذات التّفاصيل المثيرة التي تجذب القرّاء،أمله أن يحقّق هذا التّقرير اهتماماً يدرّ أرباحاً إضافيّة على المؤسّسة الإعلاميّة العالميّة التي يعمل فيها كي يحظى بعروض أفضل في مؤسّسته أو في مؤسّسات أخرى أكبر وأكثر شهرة منها،وتدفع له الأجور بسخاء يرضي غروره ومتطلّباته.

إنجاز هذا التّقرير المصوّر هو كلّ ما يعنيه من الظّالم أو المظلوم في هذه المحرقة التي تستعر في فلسطين،وإن كان قد حضّر نفسه مسبقاً ليكون إلى صفّ الصّهيونيّ الذي يدفع لأنصاره بسخاء،ويقدّم له استضافة ذات قائمة تزدحم بالمتعة واللّهو والنّساء الجميلات.

لم يتوقّع أنّ أولئك الفلسطينيين سوف يسرقونه إلى عوالمهم،ويخطفونه لمدّة أسبوعين ليعيش معهم تفاصيل نضالهم وقهرهم،لقد صوّر الآلاف الصّور من معاناتهم،وسجّل أفلاماً كثيرة لجرائم الصّهاينة.

أرسل التّقرير الذي أعدّه إلى المؤسّسة الصّحفيّة التي يعمل فيها،ما عنّى نفسه بأن يعرف

إن نُشر التّقرير أم لا؛وهو من يخمّن أنّ مديره اليهوديّ سوف يعدم هذا التّقرير الذي جاء بغير ما اشتهى.

لقد أطلق المختطفون الثّوار الفلسطينيّون سراحه،وسمحوا له بأن يذهب وشأنه،لكنّه صمّم على أن يظلّ معهم؛فهم قد خطفوه من نفسه للأبد.تلثّم بالـ(الكُوفيّة) الفلسطينيّة،وتبعهم في الدّرب الذي سلكوه.

صديق

ثلاثة من أصدقائه سار في جنازتهم يطالع المحفّة التي تحملهم بملابسهم ليدفنوا بها كما يُدفن الشّهداء؛قامته القصيرة لصغر سنّه منعته من أن يشارك في حمل المحفّة التي تحمل صديقه الرّابع الذي أرداه قنّاص صهيوني،وهو في طريقه إلى المدرسة هذا الصّباح المنصرم،كان كلاهما يسيران معاً عندما اختاره قنّاص يلهو لينزع روحه،لقد لفظ صديقه آخر أنفاسه بين يديه،ما نطق بكلمة وداع لصديقه وهو يضمّه إلى صدره،ولكنّه بكاه بحرقة.

كلّما أقام صداقة مع فتى ما من أترابه سرقه الصّهاينة منه،وألقوا به في حضن الموت.

معلّمه قال له إنّ أصدقاءه جميعاً في الفردوس الأعلى في حبور وأمن،يحبّهم ويحبّ الصّداقة،لكنّه يخشى أن يختار صديقاً خامساً فيسارع الصّهاينة إليه ليخطفوه منه.

الكُوفيّة[1]

عندما طُردوا بقوّة السّلاح والبطش من بيوتهم قيل لهم إنّهم سيعودون إليها بعد أيّام قصيرة،لمّا طال بهم الانتظار في أوّل محطّات الرّحيل قرّر أن يعود إلى بيته ليحضر بعض الطّعام والملابس والماء لأمّه وأبيه وإخوته،كانوا مكسورين تحت دوالي العنب ينتظرون

١- الكوفيّة:هي غطاء الرّأس الذي يضعه الرّجل الفلسطيني،يُصنع من الكتّان أو من القطن،ويتكوّن من اللّونين الأبيض والأسود،وهو رمز للنّضال الفلسطيني،وتسمّى أيضاً الحطّة والسّلك والقضاضة والشّماع والغترة والمشدّة.

العودة إلى بيوتهم حيث تركوا القمح في خوابيه والزّيتون في جراره والرّضف في طابون الخبيز.

رافقه في طريق العودة ثلاثة من أبناء القرية، كان الدّخول إلى القرية سهلاً في وسط الظّلام والهدوء، لكن ما كادوا يدخلون حيّهم حتى حاصرتهم العصابات الصّهيونيّة، فقتلت اثنين ممّن معه، واستبقته وآخر على قيد الحياة ليخدمهم، أجبروهما على امتداد شهر كامل على أن ينقلا مؤنة بيوت القرّية إلى حيث تجمّعاتهم المستحدثة بعد أن أوسعوهم ضرباً وتعذيباً وإهانة وتحسيراً.

استطاع أن يهرب منهم، وأن يعود إلى أهله ليخبرهم بأنّ العودة إلى بيوتهم لن تكون أبداً في القريب، أمّا ابن قريته فقد هلك من عذاب الحمل والنّقل والقهر.

عاد إلى أهله باكياً قد براه الجهد والجوع، وكوته الشّمس بسياط من لظاها، لم يبكِ عذابه أو ظلمه، لكنّه بكى بشدّة خجلاً من شعره المكشوف بعد أن سرق مجرمو العصابات الصّهيونيّة كُوفيّته، وأجبروه على أن يعمل حاسراً من كرامته واعتزازه وتراثه، بكى دون توقّف حتى شقّ والده الكوفيّة الوحيدة التي يملكها، وستر رأسه بنصفها، وستر رأسه ابنه بنصفها الآخر.

معبر

هذا المعبر هو الشّاهد الإجباريّ على دموع الفلسطينيين وأحزانهم وآلامهم وحصارهم وجوعهم وتعذيبهم، وحده من يتقطّع خزياً وألماً وعاراً وهو يردّ الملهوفين، وحده من يحرم أماً من ابنها، وأخاً من أخيه، وامرأة من زوجها.

كلّ يوم يحلم بأن يفتح أبوابه في وجوه المنكودين، لكن حلمه يظلّ سجين ذاته؛ فهؤلاء الجنود الظّلمة يخنقون الفلسطينيين به من ظاهره ومن باطنه، كلّهم صهاينة، ولو اختلفت الوجوه والسّحن واللّغات.

اليوم قرّر المعبر أن يحقّق حلمه، على حين غرّة وغفلة من الجميع خلع جسده المقيت

من أسره المتعفّن،وهرب نحو البعيد،وترك مكانه لمن لا يخجلون من أنفسهم.

عِرْض

لا يخشى الموت أو الجوع،ويحبّ أرضه أكثر من محبّته لنفسه،ولكنّه يخشى أن يهدر رجال العصابات الصّهيونيّة عِرْض زوجته وبناته الثّلاث وحفيداته،لقد سمع قصصاً تشيّب القلب قبل إشابة شعر الرّأس عن هتك أعراض الفلسطينيين في القرى المجاورة التي داهمتها العصابات الصّهيونيّة.

قرّر أن ينجو بعرض زوجته وبناته وحفيداته وزوجات أبنائه،حملهنّ جميعاً على عجل،وقرّر أن يطير بهنّ بعيداً عن أيدي الغاصبين،أمّا أولاده الذّكور الخمسة وبنيهم فقد تركهم يدافعون عن أرضهم في وجه من يريد أن يهتك عرضها.

سار يغذّ الخطى مع الهاربين خوفاً على أعراضهم،كانت النّساء تسير في المقدّمة والرّجال في المؤخرة لحمايتهنّ.عندما وصلوا جميعاً إلى النّهر شرقي وطنهم،ترك زوجته وبناته أمانة في حضن المتأهبين لعبور النّهر،وقرّر أن يعود ليحمي عرضه الأرض.

صحراء

الجيش الصّهيوني سرق أربعة من أخوتها؛ثلاثة منهم قتلهم وهم يدافعون عن الصّحراء الفلسطينيّة،ورابعهم جنّدوه في صفوفهم حتى نسي أهله،وقلع ذاكرة قلبه وأصله،وغدا أسوأهم فتكاً بالفلسطينيين.

هي قرّرت أن تنتقم ممّن سرقوا إخوتها الأربعة،وتركوها وحيدة في الصّحراء معلّقة بين الفقد والعار،استغلّت جمالها البدويّ الفاتن كي تنصب الكمائن للصّهاينة،تتبدّى لهم في الوقت المناسب،تُسيل لعاب شبقهم،تستدرجهم فُرادى إلى قلب الصّحراء المشحون ببغضهم،بالحيلة تجرّدهم من سلاحهم وعتادهم وأجهزة اتّصالهم،وتتركهم عراة تائهون

في الصّحراء حتى تدفنهم فيها بعد أن تمتصّ أرواحهم الخبيثة،وتبصقها في الشّمس كي تتطهّر من رجسهم.

معرض لوحات

يحمل الجنسيّة الصّهيونيّة رغم أنفه بحكم أنّه يعيش في إحدى المدن الفلسطينيّة التي يحتلّها الكيان الصّهيوني،ويعدّها من جسم كيانه الاستدماريّ،لكنّ قلبه فلسطينيٌ مهما حمل من جنسيّات مفروضة عليه.

أقام معرضاً للدّمار الذي ألحقه الكيان الصّهيوني بقرى فلسطين ومدنها وحواضرها وطبيعتها عبر لوحات رسمها بنفسه،بعد أن ساندته بعض المنظّمات الإنسانيّة الدّوليّة والمحليّة في مسعاه،واستصدرت له إذناً عسكريّاً يسمح له بإقامة المعرض.

جاء الكثير من الفضوليين الصّهاينة إلى المعرض،أثارت اللّوحات المتقنة فضولهم،أحدهم مال عليه برأسه الخنزيريّ الكبيرالأحمر،وسأله بفضول:»هل أنت من رسمت هذه اللّوحات؟!

أجابه الرّسام الفلسطيني: «بل أنتم من رسمتموه».

بيت

كان بيته صغيراً يضيق بأسرته الكبيرة وضيوفهم الذين لا ينقطعون،لطالما تمنّى أن تحصل عائلته على بيت أكبر في وطنهم ليظفر ببعض الرّاحة والخصوصيّة في غرفة خاصّة له بدل أن ينام كسمكة مخلّلة بين أخوته الكُثر.

الاحتلال قصف بيتهم الصّغير،فتطاير نتفاً يمنة ويسرة،جميعهم وجدوا أنفسهم في العراء دون مأوى،أمّه استسلمت لعويل مجلجل،وإخوانه تنافسوا لأن يجدوا مكاناً ينزون فيه حتى يجدوا مأوىً لهم بعد أن دفعهم الجنود الصّهاينة بعيداً عن الأرض التي هي ذكرى دارسة لبيتهم،أمّا هو فابتسم بشماتة في وجوه الجنود الصّهاينة لأنّه يستطيع الآن أن يتّخذ

من فلسطينه بيتاً كبيراً له يسرح ويمرح فيه كيفما شاء دون ضيق.

جملة واحدة

لم يبقَ له من بيته وأسرته سوى جملة واحدة على بقايا جدار،لقد كتبها قبل أيّام عندما كان يملك أسرة،وكان عنده بيت،كتبها وأمّه تلومه لأنّه أفسد طلاء الحائط بالكتابة عليه،ولكنّها خجلتْ وصمتتْ عندما قرأتْ الجملة التي كتبها عليه.

قرأ جملته النّاجية من الموت « فلسطين داري،ونحن باقون فيها»،بعض حروفها تكاد تختفي بسبب تقشّر طلاء الحائط جرّاء القصف،يعتلي حجراً من أحجار بيته الشّهيد،ويأخذ بعضاً من دمه ليلوّن حروف جملة» فلسطين داري،ونحن باقون فيها» كي لا تندثر أبداً.

مسجد

لم يعتقد يوماً أنّ شيخهم في المسجد الذي يعلّمهم تلاوة القرآن وتفسيره هو أوّل من سوف يذبحه الجنود الصّهاينة،كان يراه أطيب من برأ الله؛ فهو لم يؤذِ بشراً في حياته،وقضى عمره متبرّعاً بتعليم تلاوة القرآن لأهالي مدينة نابلس،يعرف تلاميذه كلّهم من أصواتهم تلاوتهم على الرّغم من أنّه كفيف البصر مذ وُلد.

اغتالته رصاصة الغدر الصّهيونيّة وهو على سجادة الصّلاة في المسجد الكبير،لا تزال آثار دمه واضحة على سجادته،يداعب قطنها بيتم وبفقد،يفتح مصحف شيخه الشّهيد،يقرأ آيات كريمات منه،ثم يقبّل المصحف،ويضعه في جيبه تبرّكاً به،وينطلق يحمل حزنه وكومة حجارة بيده علّه يظفر برأس من قتل معلّمه الشّيخ.

تضامن

أبوه وأعمامه الثّلاثة في إضراب مفتوح عن الطّعام في معتقل المحتلّ احتجاجاً على

اعتقالهم دون جريمة، جدّته لأبيه في إضراب مفتوح عن الطّعام إلى حين الإفراج عن أولادها الثّلاثة، وهو في إضراب عن أيّ إضراب حتى ينمو ويكبر سريعاً كي يُخرج أعمامه الثّلاثة من المعتقل؛ هو متأكّد أنّهم يستطيعون تحمّل الجوع حتى يكبر، وينقذهم ممّا هم فيه، فهم -في عينيه- أقوى الرّجال في الدّنيا، أمّا جدّته لأبيه فعليه أن يقنعها بأن تستبدل الدّعاء المخلص على العدوّ بالإضراب؛ فجسدها الضّعيف المريض لا يحتمل الجوع.

لثام

الجنود الإنجليز حاصروا الثّوار الفلسطينيين في الجّبال، فاضطروهم إلى أن يلجأوا إلى المدن المجاورة لهم، ظنّوا أنّهم سوف يلتقطونهم الواحد تلو الآخر بكلّ سهولة؛ فهم جميعاً يلبسون كُوفيّات فلسطينيّة، ويتلثّمون بها ليخفوا شخصياتهم الحقيقيّة، ويعيونهم فتكاً وانتقاماً منهم، أمّا أهل المدن الفلسطينيّة فلا يلبسون هذه الكُوفيّات، وإنّما يتيهون بـ(الطّربوش) الأحمر ذي (الشّرشوبة) السّوداء.

الخطّة سهلة ومضمونة النّتائج، تتلخّص في حملة عملاقة لمداهمة المدن الفلسطينيّة بالآلاف الجنود الإنجليز، فيقبضون على الثّوار كلّهم في يوم واحد، ثم تموت الثّورة ضدّهم بعد أن يعلّقوا الثّوار على أعواد المشانق على امتداد الطّرق المدن الفلسطينيّة حتى الجبال مقرّ الثّورة.

جاء الصّباح، وداهم الجنود الإنجليز المدن الفلسطينيّة في لحظة واحدة ليجدوا أنّ رجال المدن وصبيانها جميعاً قد لبسوا الكوفيّات، وتلثّموا بها، فاختفى الفدائيّون بينهم. ارتبك (الجنرال) الإنجليزيّ وأسقط في يديه، وابتسم الثّوار.

انتظار

يؤرّخ الأزمان جميعها بالانتظار؛ سوف يهجرون هذا المخيّم، ويعودون إلى بيتهم في القرية عندما يرحل الصّهاينة، وهم لا يرحلون. سوف يتزوّج عندما يخرج أخوه (مصعب)

من المعتقل الصّهيوني، وهو لن يخرج أبداً ما دام محكوماً بأربعة مؤبّدات؛ لأنّه حمل حجراً في وجه أعدائه. سوف تذهب أمّه إلى الحجّ عندما تقطف أشجار الزّيتون لهذا العام، ولكنّها لن تقطف ثمار الزّيتون في أيّ وقت؛ فقد اقتلعت آليّات الدّمار الصّهيونيّة أشجار الزّيتون جميعها.

يقرّر أن يرحّل العدّو الصّهيوني، وأن يخرج أخوه من المعتقل، وأن تذهب أمّه إلى الحجّ هذا العام مهما كلّفه هذا الأمر، يعرف طريقة واحدة لتحقيق ذلك كلّه دون انتظار، يركب آلة التّجريف العملاقة التي يعمل سائقاً أجيراً عليها في مشروع إسكاني، ينطلق بها مسرعاً، ويجرف بها قطيعاً من الجنود الصّهاينة، ويظلّ يطارد الجنود الهاربين من أمامه والمستدمرين الموجودين في المكان كي يسحقهم جميعاً، ليتحقّق المنتظر.

بحر أسود

مرّات قليلة هي المرّات التي سُمح لعائلتها فيها بأن تصل إلى شاطئ غزّة، وأن تقضي وقتاً سعيداً في مداعبة مياهه الزرّقاء الصّافيّة، أمّها أخبرتها إنّه صافٍ مثل قلوب الشّهداء.

عندما استيقظت هذا الصّباح وجدتْ بيتها يكاد يغرق في مياه قذرة منتنة الرّائحة قد اجتاحت شوارع حيّها وزقاقه، إنّها مياه الصّرف الصّحيّ قد أطلقها الصّهاينة عليهم من جديد كي يعذّبوهم أكثر فأكثر؛ ابنتها الصّغيرة تسألها بفضول وقد أدهشها اللّون الأسود القاتم الذي ابتلع الشّوارع ثم ابتلع أرضيّة بيتها: »بحرنا لونه أزرق، فهل هذا البحر الأسود للصّهاينة؟«

أجابتها الأمّ بقرف من الرّائحة الكريهة التي تزكم أنفها: » نعم، إنّه بحرهم«.

هواية

تعوّد على أن يطوّر هواياته بما يتناسب مع إمكاناته الجسديّة ومعطياته الماديّة وإصراره على الانتقام من مغتصب وطنه الجبان؛ في طفولته كان يجيد الجري، ولذلك كان يتعمّد

أن يترك حقيبة محشّوة بالحجارة على أيّ رصيف أمام دوريّة الجنود،ثم يركض بعيداً عنها حتى يتوارى عن الأنظار،ويقف يراقب الجنود الصّهاينة يهربون مرتعدين من حقيبته الصّغيرة التي يظنّون أنّ فيها قنبلة ما.

عندما كبر طوّر هوايته لتصبح فقئ عيون الجنود الصّهاينة عبر مقلاعة جلديّة صنعها بنفسه.

وعندما حصل على سلاح بعد انضمامه إلى صفوف المقاومة الفلسطينيّة غدت هوايته أن يقطف رؤوس الجنود الصّهاينة،وينذر كلّ رأس منها لفلسطينيّ قتلوه ظلماً وعدواناً.

وليّ

أرادوا اللّهو بتخويف الفتى الفلسطينيّ الأغرّ الذي قبضوا عليه في أعلى الجبل يرعى عنزاته القليلة،استفردوا به،واستغلّوا أنّه وحده أعزل من رفيق مُعين أو سلاح حامٍ،فقيدوه،وجرجروه إلى مقبرة الوليّ الشّهيد الفدائيّ في أعلى الجبل،ثم انهالوا عليه صفعاً وهو مقيّد الذّارعين والعينين،وتناولوا من الأرض حجارة مدبّبة الرؤوس كي يكسّروا بها عظامه على مهل.

الوليّ الشّهيد الفدائيّ لم يطق صبراً على ما يشهد من اعتداء خبيث على الفتى الأعزل الوحيد،خرج من قبره،أطلّ من ملابسه الدّامية،وجهه كان هلامي القسمات،حضر الشّهداء جميعاً في وجه،هيبتهم نامتْ في صمته،أشرق بهاؤه على الدّنيا،فعمّ الظّلام في عيونهم،طارتْ قلوبهم بعيدا عنهمّ خوفاً من تجلّيه،وطاروا خلفها يتعثّرون بجبنهم وتدافعهم للنّجاة بأرواحهم من غضب الشّهيد الوليّ.

جمهورية فلسطينيّة لـمدة ٩٥ كيلو

اسمها دلال المغربيّ،واسمها الحركيّ في الفداء (جهاد)،أحلامها كبيرة،ولكنّها الأكبر منها على الرّغم من أنّ عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً من سنين العذاب الفلسطينيّ التي

ذاقت فيها ويلات التّهجير والشّتات والمذابح وعذابات المخيمات وضنك الحياة والفقر والاضطهاد والظّلم.

الآن هي بإجلال وتقديس تقبّل العلم الفلسطيني الذي كانت تطويه في جيب ملابسها العسكريّة التي تشفّ عن جسدها الهزيل الصّغير الذي قَدّ ثوب الطّفولة منذ زمن طويل، وهجر الأنوثة المتقاعسة المهزومة، وقرّر أن يكون حطباً مقدّساً في أتون الوطن، لقد تدرّبت طويلاً على أيدي أمهر الفدائيين الفلسطينيين في لبنان لتصل أخيراً إلى هنا، وتعلّق علم وطنها في مقدّمة الحافلة التي تختطفها.

الآن هي تحّقق حلمها، وتحرّر تل الرّبيع لا تل أبيب من قبضة العدو الصّهيوني لمدّة ست عشرة ساعة، وتعلن الجمهوريّة الفلسطينيّة الحرّة المنتصرة على امتداد ٩٥ كيلو في العمق المحتلّ من تل الرّبيع من حافلة صّهيونيّة اختطفتها هي ومجموعتها الفدائيّة، ليرفرف العلم الفلسطيني بكبرياء في مقدّمة الحافلة العسكريّة التي تخطفها أمام دهشة العيون الصّهيونيّة التي ترتعد بخوف وجبن.

تصرخ فيهم، وتقول بنبل وفروسيّة نادرة :» نحن لا نريد قتلكم، نحن نحتجزكم فقط رهائن لنخلص رفاقنا المعتقلين من براثن أسركم. نحن شعب يطالب بحقه بوطنه الذي سرقتموه. ما الذي جاء بكم إلى أرضنا ؟!»

وعندما تقرأ في عيونهم أنّهم لا يفهمون ما تقول توكل لمجندة صهيونيّة محتجزة- تزعم أنّها من أصول يمنيّة -مهمة ترجمة ما تقول لهم، وهي تلفظ كلماتها بصوت جهوريّ شجاع:» هل تفهمون لغتي أم أنكم غرباء عن اللّغة والوطن !!!.

هي تترنّم، وتهتف مع زملائها الفدائيين:»لتعلموا جميعكم أن أرض فلسطين عربيّة، وستظل كذلك مهما علت أصواتكم وعلا بنيانكم على أرضنا.

بلادي... بلادي... بلادي لك حبّي وفؤادي

فلسطين يا أرض الجدود إليك لا بد أن نعود»

العيون الصّهيونيّة العالقة في الخوف تحاصرها بدهشة،وهي لا تصدّق أنّ هذه الفتاة الفلسطينيّة الصّغيرة قد بلغت الجرأة بها وبأحد عشر شاباً فلسطينيّاً،بينهم لبنانيّ ويمني،أن يخترقوا شواطئ يافا المحتلّة،وأن ينزلوا عليها،وأن يصلوا إلى قلب مدينة تلّ الرّبيع،فيخطفون حافلة فيها نحو ثلاثين مجنّداً صهيونيّاً،ويجبرونها على التّوجّه إلى حيث يريدون عبر طريق عسكريّ،ثم يخطفون حافلة أخرى،وينقلون الجنود الذين فيها إلى الحافلة الأولى،ليصبح عدد المختطفين ثمانيّة وستين جنديّاً،ويعلنون أنّهم عادوا إلى وطنهم لتحرير رفاقهم الفلسطينيين الأسرى.

هي قد حقّقت حلمها أخيراً بإعلان تحرير وطنها،فهي تعيش أجمل لحظات عمرها في عمق الأراضي المحتلّة من وطنها بعد أن حرّرتها ولو لزمن قصير،هو زمن عمليّة الاختطاف وعبور ٩٥ كيلو في داخل تل الرّبيع.

لقد حاصرتها ومن معها من الأشبال الفلسطينيين جماعات سوداء آثمة من الجنود والمروحيّات والآلات العسكريّة الثّقيلة الصّهيونيّة بقيادة الإرهابيّ المحتلّ (إيهود باراك)،لكنّها لم تخف،ولم تتراجع،وظلّت تقاتل حتى آخر طلقة معها إلى أن أُستشهد معظم من كان معها من رفقاء التّضحية،واخترقتْ رصاصة أعلى عينها اليسرى،وأسلمتها للنّوم الأبدي العذب في وطنها.

تكره أن يلمس بشر شعرها،ولكنّها لا تبالي بوحشيّة عدوّها (إيهود باراك) الذي يشدّها من شعرها،ويسحب جثمانها على الأرض،وينكّل به بغيظ دون أن يستطيع أن يمنع روحها من أن ترتقي إلى العُلا،وهي تمسك بأيدي رفاقها الشّهداء لتستقبلهم ملائكة السّماء مبتسمة مهلّلة.

تبتسم ساخرة من عليائها وهي ترمق عدوّها الأحمق يمثّل بجسدها الشّهيد،تهتف بأهل الأرض نكاية به:»فلسطين حرّة عربيّة»،فتردّد السّماوات والأرضون جملتها المقدّسة.

خيال الظّلّ

يحبّ دور بطل خيال الظّلّ،ولذلك يعيش حياته عندما يرقّص دُماه،إلاّ أنّه لم يكن يوماً فرداً حقيقيّاً في حياة المغامرة والفضيلة والنّضال والبطولة والشّهامة والكرم التي تعيشها دُماه القماشيّة التي يصنعها ببراعة ودقّة قياساً بعشوائيّة هندامة وشعثاء خصال شعره،بل كان دائماً مجرّد مرقّص لدمى خيال الظّلّ،لا يعرف الكثيرون اسمه أو أصله على وجه الدّقة،ولكنّهم يتفاءلون به عندما يرونه يحطّ عزاله في مقهى من مقاهي مدينة القدس،ويعلن لهم عن موعد مسائيٍ لعرض من عروضه التي تستحضر أبطالهم المحبوبين أمثال عنترة وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمّة والزّناتي خليفة وعروة بن الورد والمهلهل وعلي الزّيبق،وغيرهم،فيتوافدون عليه مساء ليدخلوا عوالمه الجميلة الحالمة مع صبيتهم وصغار صباياهم بقليل المؤن والهدايا والقروش التي يغدقون عليه بها.

صوته كان بطلاً دائماً،أداؤه كان بطلاً،انفعاله كان بطلاً،قدرتّه على إحياء الأحداث كانت تدلّ على أنّ بطلاً ما يسكنه،ولكنّه كان يعيش حياة بسيطة ليست ذات جاه،يكفيها قليل المال ليقنع بها مادام يعيش للفنّ الذي يحبّه،ويعيش وسط أبطاله العرائس الذين يعيش معهم صداقة لا انفصام لها.

إلى أن جاءت عصابات الصّهاينة،وهاجمت المدينة وقراها،واحتلّت ابتداء قرية القسطل،فتصدّى لها القائد (عبد القادر الحسينيٍ) ليحرّر القرية الأسيرة،ويحطّم العصابات التي تنوي أن تستولي على فلسطين كلّها،لكنّ العرب رفضوا أن يساعدوه،وأن يمدّوه بالسّلاح،فقرّر أن يدافع عن وطنه بما يملك من عظيم رجولة وقليل رجال وسلاح،ثمّ انضمّ إليه الأحرار من كلّ مكان،وانضمّ إليهم صاحب خيال الظّلّ الذي ترك عزاله ودماه أمانة عند صاحب المقهى في السّوق القديم في القدس إلى حين عودته،ولحق بـ(عبد القادر الحسينيٍ) ورجاله.

أخيراً آن لرجل خيال الظّلّ أن يلعب دور البطولة الذي عاشه مرّة تلو الأخرى في عالم الخيال،ولم يعشه يوماً في الحقيقة،لقد قاتل ببندقيته اليتيمة حتى التقمه الموت بعد أن طارده كثيراً وهو يفتك برجال العصابات،فمنعه من أن يرى قرية القسطل قد تحرّرت من العصابات الصّهيونيّة،ولم يرَ قائده الأشوس يُستشهد في هذه المعركة،ولكنّه أخيراً لعب دور البطولة الخالدة الذي لطالما حلم به،وغادر الحياة راضياً مرضيّاً دون أن يعرف أحد ماذا كان اسمه أو من يكون.

العيد

خمسّة أعوام كاملة لم يدخل العيد بيتهم فيها؛في كلّ عام هناك موت صهيونيّ يغتال فرداً من أسرته أو من جيرانه،فيحرّم العيد على قلوبهم وبيوتهم،أمّا هذا العيد فهو يصمّم على أن يفتح الأبواب له على الرّغم من الحصار الذي يفرضه الجنود الصّهاينة على بلدتهم منذ أكثر من شهر بعد أن وعد أخاه الصّغير ذا الخمسة أعوام بأن يرى طقوس العيد في بيتهم،وهو من لم يرها في بيتهم مذ ولُد في ليلة استشهاد خاله(طلال).

لقد أنفق ما ادّخره من عمله المتقطّع في البناء وما ادّخرته العائلة كلّها في رمضان محجور عليه بحصار طويل لاستقدام العيد بصورة تفرح قلب أخيه الصّغير.فجاء العيد متباهياً ببيت حنون يتناوب على ترقيص ملابس العيد الجديدة الخاصّة بالابن الأصغر،ويتزيّن بالبالونات الملوّنة والشّموع المتلألئة،سار العيد إليهم على هدي رائحة فطائر العيد المحشوة بالمكسّرات والتّمر والقشطة،لقد حلّ على بيتهم أخيراً بعد انتظار طويل،دخل من الباب،فخرجت روح أخيه من النّافذة برصاصة صهيونيّة قنصته وهو يأكل من فطائر أمّه،ويرقب قدوم العيد الذي سيقابله اليوم لأوّل مرّة في حياته.

٢

تقاسيم المعتقل

آمال

أمّها أسمتها(آمال) لتحمّلها أحلامها وأمانيها وخوفها من المستقبل الذي لا يهادن امرأة زوجها عجوز،ولا أهل لها أو معين.كانت (آمال) الطّفلة المدلّلة التي تستعصي على السّنين والكبر؛لأنّ والديها يحبسانها في حنانهما ضنّاً بها على ضنك الحياة وكدّ الحياة.

اعتقلها الجنود الصّهاينة دون جناية ارتكبتها وهي في طريقها إلى مدرستها،زجّوا بها في معتقل الأسيرات الفلسطينيّات في صحراء قافلة جافّة من أيّ رحمة بعد أن صادروا كتبها ودفاترها.هناك تعلّمت أن تكبر،وأن تخلع الدّلال لتليق بأمهاتها الجديدات.

تنادت الكثير من المؤسّسات والمنظّمات الإنسانيّة العالميّة لإطلاقها من الأسر بوصفها أصغر معتقلة سياسيّة في العالم.بعد أشهر من المعاناة خرجتْ (آمال) من المعتقل حيث خلعتْ طفولتها،وارتدتْ قلباً شجاعاً لا يقبل بأقلّ من فجر أبلج قريب يحقّق آمال الوطن.

الأسير الرّضيع

لا يعرف بأيّ جناية هو مسجون في هذا المعتقل حيث الرّطوبة والعفونة والازدحام والجوع،الوجوه حوله كئيبة،ولكنّها تصمّم على الحياة،وأمّه الحنونة يكاد يجفّ حليبها حزناً ومرضاً وهزالاً.

منذ وُلد وجد الضّيق والضّنك أمامه،لم يخرج بسهولة من بطن أمّه لأنّها تزمّ فخذيها وتغلقهما بشدّة بسبب سلاسل تكبّل قدميها،وتشدّ إحداهما إلى الأخرى،حتى أنّها لم تستطع أن تحتضنه عند ولادته كأيّ أمّ؛لأنّها كانت كذلك مصفّدة اليدين،وطال جوعه قبل أن تدس حلمة صدرها في فمه لأنّها كانت تعاني من غيبوبة عميقة بسبب نزيف حادّ أصابها في ولادتها له.

هو يحبّها،ويسمع همسها في أذنيه عندما تعده قائلة:»حبيبي محمد،سنخرج في القريب من هذا المعتقل الصّهيونيّ اللّعين،عندها سترى والدكَ جابر،وأختيك،وجدتّك وأعمامك

وأقاربك أجمعين».

هو يصدّقها،ويحلم مثلها بالخروج من هذا المكان الكئيب الذي تسمّيه أمّه بالمعتقل الصّهيوني،ويمرّن يده كي يستطيع في القريب أن يرفع إصبعين من أصابعه إشارة نصر كالتي ترفعها والدته في وجه المجنّدات الصّهيونيّات لإغاظتهنّ وتأكيد فشلهن في زعزعة صمودها،ويفخر بلقب أصغر أسير في التّاريخ،وإن كان لا يعرف تماماً معنى هذا اللّقب،لكنّه يعرف أنّه سيعرف معناه جيداً عندما يكبر،وحتى ذاك الوقت سيصدّق أمّه التي تعده بالخروج في يوم قريب من هذا المكان الكئيب المخيف.

إضراب

منذ أيام لم يعد يستطيع أن يحصيها هو مضرب عن الطّعام احتجاجاً على اعتقاله دون سبب أو محاكمة في هذا المعتقل الصّهيوني العفن.

جسده هزل،ولم يعد يقوى على الوقوف على قدميّه،أجبروه بضع مرّات على شرب الحليب البارد كثير السّكر عبر أنابيب بلاستيكيّة دسّوها بعنف في أنفه وصولاً إلى جوفه حتى مزّقوا مجراه التّنفسي،وأغرقوا معدته بالحليب البارد المغثّ.

لكنّهم الآن قرّروا أن يتركوه يموت على مهل وعذاب كأيّ أسير فلسطيني في معتقلاتهم،لا يعنيهم حملات منظّمات حقوق الإنسان إزاء إضرابه عن الطّعام احتجاجاً على قهره.

جلس الحارس الصّهيوني أمامه يأكل ما لذ وطاب من طعام افترشه أمامه ليعذّبه بالجوع،وهو يتفتّق من جلده لكثرة ما ابتلع من طعام.

يراقب الحارس الأسير الفلسطيني،فيغيظه أن لا يرى عذاب الجوع في عينيه،وهو من يستعرض أمامه لذة الأكل.يسأله بفضول:» ما الذي يدعوك إلى هذا الإضراب المرير عن الطّعام؟! عجباً لك».

يجيبه الأسير الجائع بكلّ هدوء:»أنت معذور في عجبك؛فأنت لا تعرف حرقة حبّ الوطن».

القصيدة

يجيد كتابة الشّعر، ولكنّه لا يستطيع أن يحفظ ولو بيتاً واحداً ممّا تفيض به قريحته، وعليه أن يحتفظ بقصائده جميعها التي يكتبها لحبيبته (خديجة)، فهو مجنون (خديجة) كما يسمّونه في المعتقل الصّهيوني.

ليس مسموحاً له بأن يقتني الورق أو الأقلام في المعتقل، ولذلك ينظم شعره، ويوزّعه بالإجبار على الأسرى جميعاً، كلّ منهم عليه أن يحفظ عشرة أبيات من شعره، وكي لا ينسى أحدهم بعضاً ممّا حفّظه من شعره فهو لا يفتأ يستنشدهم ما يحفظون من شعره.

لا يبالي بسخريتهم وهم ينشدون على مسمعه ما يحفظون من شعره، إنّما يعنيه أن يعرف أنّ كلّ ما نظم من شعر في حبيبته (خديجة) محفوظ في الصّدور إلى حين خروجه من المعتقل ليسكب على شفتيها كلّ ما كتب من شعر، وما ادّخر لها من قُبل.

لا أحد يجرؤ على أن يخبره بأن رصاصات المستدمرين قد اغتالت (خديجة) منذ زمن، وهو لا يملك جرأة ليقول لهم أنّه يعرف أنّها قد رحلت عن هذا العالم دون رجعة، ولن تسمع في يوم ما بيت شعر ممّا يدّخره لها قسراً في صدور الأسرى الذي يحفظون شعره رحمة بقلبه العاشق المكلوم ومدامع هواه.

دموع

على حين غرّة، ومثل مطر يغسل قحط سنين يأتي قرار الإفراج عن الأسرى الفلسطينيين في صفقات مبادلة متّفق عليها مع الكيان الصّهيوني.

في دقائق يخفق الخبر في قلوب المنتظرين، يطير الجميع لاستقبال الأسرى المُفرج عنهم، ويطير هو في مقدّمتهم لعلّ والده من المُفرج عنهم.

تتحسّس عينيه كلّ وجه من وجوه الأسرى وعيناه تبحثان عن ذويهم في الأجساد المزدحمة في الانتظار، يراقب الأجساد الملتقية تذوب احتضاناً وتقبيلاً.

يدرك أنّ والده ليس من ضمن الأسرى المُفرج عنهم،يدير ظهره قبل أن تفضحه دموعه التي يشرق بها،وتحرق حلقه حشرجة خيبة الأمل،يمسح دموعه بباطن يديه كي لا يراها أيّ أحد،فهو رجل،والرّجال لا يبكون.

سجين

كان جنديّاً صهيونيّاً مستحدثاً على كادراً الخدمة في هذا المعتقل الصّهيوني،كانت تعلو وجهه الأبله المفلطح المساحات زرقة الموت وهو يرى تعذيب المعتقلين الفلسطينيين.

لكنّه سرعان ما ذاق شهوة الفتك بالبشر.جسده الضّخم مثل جسد ثور هجين بتر حياة الشّاب الفلسطيني بنطحة واحدة منه.

الشّاب الفلسطيني القتيل خرج جثّة هامدة من المعتقل رغم أنفه وهو من توعّده بالسّجن طوال عمره تنكيلاً بشبابه ووسامته وشجاعته وإصراره الذي تفلَ بقرف وتقزّز في وجه بلادته.

منذ ذلك اليوم غدا هو سجين المعتقل حيث يراقب أسراب أرواح الشّهداء الفلسطينيين تحلّق نحو العلياء والخلود،وتتركه يتلوّى حبيساً في جسده الثّور البليد.

حليب

لم تتوقّع أبداً أن تجود عليها الأقدار بابنها الرّضيع (رزق الله) بعد أن فقدت الأمل في الإنجاب،وهجرها زوجان،أحدهما ابن عمّها،بسبب عقمها،ثم تزوّجت من جارها(زهدي) الذي حملت منه بابنها(رزق اللّه).

ولكن القدر جاد عليها به في حين تآمرت الظّروف عليها،فحرمتها منه عندما وجدت نفسها أسيرة في معتقل صهيوني في الصّحراء بعيداً عن طفلها الرّضيع هدية السّماء لها الذي تركته أمانة غالية في عهدة زوجة أخيها.

أشدّ ما يحزنها أنّ طفلها رضيع يحتاج إلى دفق حليبها الذي ينساب هارباً من حلمتي

ثدييها كلّما نطقت باسمه أو حشرجتْ بدموع الاشتياق له،أو شرقت بلوعة فراقه.

هي تصدّق بالمعجزات،تخرج ثدييها من داخل ثوب سجنها الفضفاض القذر،وتفكّر بابنها الرّضيع،فيندلق الحليب من صدرها في فم ابنها على الرّغم من البعاد،فترضعه حتى يشبع وبينهما صحراء وسجن وجنود وكلاب!

أسير

أحد عشرعاماً قضاها في الأسر الصّهيوني بتهمة مخرّب كبير؛لأنّه أطلق بضع طلقات على معسكر جنود صهيوني،دخل إلى هناك طفلاً مدفوعاً بالحماس والرّغبة الطّاهرة البريئة بالشّهادة وتحرير فلسطين من قيود العبوديّة،وخرج منها عميداً من عمداء الأسرى الذين يحملون فكراً نضاليّاً يُعدّ مدرسة في التّضحية العربيّة لأجل القضيّة الفلسطينيّة.

لم يجد أحداً في انتظاره عند خروجه من المعتقل،خمّن أنّه لم يُسمح لأحد من أهله وأصدقائه بأن يدخلوا الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة كي يستقبلوه،أنتظر بحماس أن يُلقى به على حدود وطنه كي يجد المستقبلين المحتشدين في انتظار عودته الميمونة المنتصرة بالصّبر والإصرار على محاولات استعباده وهزمه.

لكنّه لم يجد أيّ بشر في انتظاره خلا حفنة من أخوته وبعض أصدقائه المقرّبين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة،تعجّب من غياب النّاس عن ملاقاة عميد الأسرى الفلسطينيين.

الطّرقات كانت تعجّ بحشود من النّاس التي تتدافع إلى مطار المدينة كي تستقبل راقصّة عربيّة عرجاء الرّوح والقدم كي تستقبلها استقبال الأبطال؛لأنّها رقصتْ شبه عارية لبعض رؤساء العالم بما فيهم زعماء الصّهاينة في قمّة رياضيّة ما،لقد رقصتْ رقصاً عربيّاً موصولاً يشبه تثنيّات أفعى تختنق بأرنب،سمعهم في الشّارع يقولون إنّ هذه الرّاقصّة الشّمطاء قد شّرفت العرب بفنّها الرّفيع،وثوبها الشّفاف الذي يقذف بلحمهما وجسدها في وجه من يقابلها.

جلس على الرّصيف المنزوي متعباً مهزوماً،وشعر أنّه مازال في الأسر.

عيد ميلاد

إنّه عيد ميلادها السّادس عشر،إنّه ناقوس حزن يدقّ في صقيع روحها الخائفة.لم ينتظرها حفل أو حلوى أو هديّة أو محتفلون بها،وليس الشّباب والجمال والحلم والفرح هم من كانوا في انتظارها،بل كان في انتظارها في بيتها القديم في مدينة النّاصرة الأسيرة نشرة ورقيّة من قانون صهيونيّ جائر يحرّم على أبناء الأسرى والأسيرات الفلسطينيين أن يزوروا آباءهم وأمهاتهم المعتقلين إن بلغوا سنّ السّادسة عشرة.

الآن ستُحرم من رؤية والدها حتى آخر لحظة في عمره،وهو المحكوم بالسّجن مدى الحياة لأنّه فلسطينيّ يحارب عدّوه لتحرير وطنه.

ترفض أن تستسلم لهذا القرار الجائر،تلبس ثوبها الجديد الأوحد الذي تدّخره للمناسبات السّعيدة النّادرة في حياتها،تشعل شمعة،وتغمض عينيها،وتتمنّى أمنية عيد ميلادها،هي أمنيتها الوحيدة،ثم تطفئها،وتشرع تنتظر أن تتحقّق أمنية عيد ميلادها،فيفتح والدها باب بيتهم،ويمّم نحوها ليبدأ الاحتفال بعيد ميلادها.

عُرِيّ

هي سليلة عائلة متديّنة عريقة،ومنذ طفولتها حفظت القرآن وتحجّبت،لم تتكشّف في يوم لرجل أكان قريباً أم غريباً،فهي تلميذة لجدّتها لأبيها التي تدعو لها بالسّتر ليل نهار،وتترأس طريق صوفيّة شهيرة،حتى الرّجل الوحيد الذي أمّلت نفسها بأن تتعرّى له زوجة بعد أن خطبها قد اغتالته رصاصة صهيونيّة في إحدى المظاهرات،وبذلك ظلّت جوهرة مكنونة في صدفة غائرة في أعماق بيت أسرتها.

لكنّها الآن تقف عارية تماماً أمام لجنة التّحقيق الصّهيونيّة،منذ اعتقلوها في عمليّة استشهاديّة آلتْ إلى الفشل،وهم يجرّبون فيها أصناف العذاب شتّى،وما نالوا من إصرارها

واحتمالها،وأخيراً أرادوا أن يجرّبوا عليها عذاب العريّ لامرأة مسلمة خجولة أمام قطيع من الجنود الصّهاينة الخنازير،اعتقدوا أنّهم سيكسرون شوكة نفسها الأبيّة المتماسكة إن كشفوا سترها.

وقفت أمامهم عارية من الملابس مكتسية بكبريائها،وما أبهت لعيونهم الخنزيريّة التي تأكل جسدها إمعاناً في تعذيبها؛فهي لا تخجل من عريّها أمام خنازير بشريّة ترعى في أرض غير أرضها.

قلب

قرّر مدير المعتقل (الجنرال) الصّهيونيّ أن يقتل الشّاب الأسير الفلسطينيّ ليسرق قلبه السّليم المعافى؛ليهبه لأخيه الصّهيونيّ الذي يلازم سرير المرض منذ سنوات دون أمل في أن يحظى بقلب سليم،يزرعه في صدره بدل قلبه المعطوب ليستأنف به الحياة والأمل.

منذ رأى ذلك الأسير الفلسطينيّ الشّاب القادم من جبل الخليل المزهوّ بالصّحة والنّضارة والنّشاط وهو يحلم بأن ينقضّ على قلبه لينتزعه من صدره،ويزرعه في قلب أخيه (باروخ).

أخيراً حقّق حلمه،وسرق القلب الفلسطينيّ من صدر صاحبه،كما سرق من قبل وأهله فلسطين من أهلها الآمنين المسالمين.

كلّ شيء قد أُعدّت له العدّة،الشّاب الفلسطينيّ قد دُفن بمعرفة الجيش الصّهيونيّ بحجّة أنّه مخرّب،ولا يجوز تسليم جثمانه لأهله خوفاً من أيّ عمليّات فدائيّة انتقاميّة لمقتله،والكادر الطّبيّ في المستشفى الصّهيونيّ في مدينة تلّ الرّبيع التي يسمونها (تل أبيب) كان على أهبة الاستعداد لإجراء عملية زراعة القلب بعد وصول القلب المسروق.

الأمور جميعها سارت وفق خطّة (الجنرال) الصّهيونيّ السّارق،وجسد أخيه تقبّل بكلّ ترحيب القلب المسروق،وبعد أيّام كست حمرة الحياة وجنتي أخيه الذي استيقظ بعد غيبوبة قصيرة استولت عليه بعد العمليّة المعقّدة الطّويلة لاستبدال قلب الفتى الفلسطينيّ

بقلبه الصّدئ المعطوب.

ابتسم (الجنرال) السّارق وكلّ من حوله للشّاب الصّهيونيّ الذي عاد إلى الحياة بقلب فلسطينيّ، فتح عينيه على الحياة بغبطة مخنوقة.

سأل (الجنرال) أخاه بقلق: «باروخ، أخي الحبيب، هل أنتَ في خير؟».

أجاب الشّاب الصّهيونيّ بدهشة واستنكار لما سمع من كلام: «أنا لستُ باروخ، أنا جميل الخليليّ. لماذا أنا هنا؟ من أنتم؟ عليّ أن أغادر هذا المكان لأذهب للصّلاة في الحرم الإبراهيمي».

نُطفة

نطفة واحدة هي من انتصرتْ لها على الحرمان والقطيعة والبعاد والسّجون والأسوار، بفضل خطّة بوليسيّة مبتكرة دبّرها طبيبها المعالج في مستشفى التّلقيح، وأخيراً استطاعتْ أن تهرّب نطفة من زوجها الأسير الفلسطينيّ في المعتقل الصّهيونيّ.

كانت طريقة تهريب النّطفة بدائيّة تماماً، وذلك بوجود شهود من أهلها وأهله كي لا يقدح أحد في شرفها، وهي من حملتْ وزوجها غائب عنها منذ سنين في أسر المعتقل الصّحراويّ البعيد.

معظم الحيوانات المنويّة في النّطفة وصلت إلى يد الطّبيب المعالج ميّتة إلاّ نفر قليل منها قاوم الجفاف، واستلقى حيّاً ينتظر التّجميد، ثم مارس الحياة والتّخصيب في رحمها عند زرعه فيه.

وأخيراً انتصر على الموت حيوان منوي واحد شجاع همام، وصافح الحياة في رحمها، وأصبح جنينها (عمّار) الذي جاء إلى الحياة مهرّباً من المعتقل الصّهيونيّ، ليحمل اسم والده الأسير، ويعده بغدٍ لا يموت، ويهبه إصراراً على الحياة، وينذر نفسه لحمل راية والده حيث العلم الفلسطينيّ يرفرف عالياً.

الآن أمّه (سعاد) هي الأسعد في هذه الحياة، تحمله وتختال به أمام الجنود الصّهاينة

السّجانين الذين أوصدوا الأبواب دون زوجها،ولكنّهم ما استطاعوا أن يحرموه من حلم الأبوّة.

تبتسم لزوجها ابتسامة نصر،وتمدّ له ابنهما (عمّار) ليطبع قبلة هوائيّة على جبينه مخترقة الفاصل الذي يبعدهما،وتؤمّله بأن يكون هذا الطّفل الرّضيع رجلاً شهماً مناضلاً قويّاً ينتظره على باب المعتقل عندما تنقضي مدّة محكوميته،ويخرج منه بعد نحو ربع قرن،فيربتْ بحنان على شيخوخته،ويعود به إلى البيت حيث الجميع في انتظاره.

٣

تقاسيم المخيّم

الدّرب

كان صغيراً يجهل الدّرب والمقصد عندما شدّ والده على يده وهو يجرّه على عجل مع إخوته وما جمع من نزير أثاث بيته بعد نكبة عام ١٩٤٨،وعندما سأل والده «إلى أين المسير؟» أجابه والده باقتضاب منكود:»لا نعرف إلى أين سنذهب».

الآن هو يشدّ بقبضته الكبيرة على كفي ابنيه التّوأمين،ويجرّهما على عجل وهلع هروباً من المخيّم في أعقاب الأحداث الدّامية في عام ١٩٦٧،يسأله أحد ابنيه: «إلى أين سنذهب يا أبي؟!»

يلوك ابتسامة صفراء تعلّ نفسه،ويجيبه بمرار مقيم:»لا نخرج من مخيم إلاّ لنذهب إلى مخيم جديد».

تلّ الزّعتر

ما ظنّتْ أنّ الموت له هذه الأشكال المتوحّشة من الانقضاض على البشر،العصابات المهاجمة لمخيّم (تلّ الزّعتر) اجتهدتْ كي تبتكر أبشع طرق قتل الفلسطينيين دون ذنب أو جناية اقترفوها إلاّ أنّهم على أجندة تصفية جهة ما لأسباب سياسيّة بحتة.

ما عادت تبالي بصور الموت،تنتظره دون خوف،لا تخشى أولئك الوحوش رجال العصابات،لقد أبادوا أمام عينيها أقارب وجيران وأصدقاء لا تستطيع أن تحصيهم عدداً،كلّ ما تريده الآن هو أن تحصل على جرّة ماء لإنقاذ أمّها وأختيها من نزاع الموت عطشاً.

إحضار جرّة ماء ضرب من المستحيل تحت رصاص القنّاصين وتناوش بنادق رجال العصابات،آبار الماء تغصّ بدماء الشّهداء الفلسطينيين الذين صمّموا على أن يحضروا الماء لذويهم.

تراهن على حياتها بجرّة ماء،تخاطر،وتتستّر بقلبها الصّغير الحزين من عيون

القنّاصين،تتعثّر بجثث الشّهداء من أهل المخيّم،وتعود تحمل جرّة الماء،على باب بيتها يقنصها قنّاص،فتُستشهد جرّة الماء،ويُراق ماؤها على الأرض السّخينة التي تبتلع الماء بظمأ وتحرّق،تسبّ القنّاص الذي صاد جرّة الماء،ولم يصدها هي،تقعد على الأرض تبكي جرّة الماء الشّهيدة،وتلملم بعض الماء في يديها قبل أن يتسرّب من بين أصابعها،ويعود إلى الأرض من جديد.

حنظلة

ورث الشّقاء عن والديه وجدوده،كما ورث عنهم الحياة في المنافي،وألف قهر نفسه حياة المخيّمات وذلّها،وظنّ أنّ الحظّ قد حالف أخاه الأكبر الذي ورث دور الأبوة عن والدهم الذي طحنه المرض والكدّ حتى شفّه ولفظه جثّة دون جسد.فاستطاع أن يبني مستودعاً صغيراً أسماه بيتاً بعيداً عن المخيّم في منطقة نائية من ضواحي المدينة التي يعيش لاجئاً فيها،فكدّس فيه أمّه وأخوته وزوجته وأم زوجته التي تعيش معهم،ثم نقل أخوته الصّغار من مدرسة المخيّم إلى مدرسة تلك المنطقة النّائية.

طلاب المدرسة ظلّوا يسخرون منه لأنّه فلسطيني قادم من المخيّم،لم يكونوا أفضل منه هنداماً أو لطفاً أو وسامة،بل كانوا أقلّ منه ألمحيّة وإدراكاً،لكنّهم تحالفوا عليه،وظلّوا يسخرون منه،ويعيّرونه بالمخيم وبفلسطينيّته.

خلع حذاءه،وأدار ظهره لهم،وماعاد يأبه بوجودهم،أو يردّ على سبابهم،أو يخجل من لكنته الفلسطينيّة،وكتب على سبوّرة الحائط:»حنظلة غاضب الآن».

صور

لم تحمل أمّها من المخيّم الذي يهاجمه الواغلون الخليط من الصّهاينة والعرب المتصهينين سوى دفتر الصّور الذي تعتزّ به وأطفالها الثّلاثة،وأملها في النّجاة بهم من مذبحة المخيّم،لم تكن تدري إلى أين المفرّ،ولا أيّ الدّروب عليها أن تسلك نحو المجهول

لتنجو بأطفالها من مذبحة جديدة،لم تطل حيرتها،فرصاصة واحدة أردتها قتيلة،وأراحتها من أسئلة البحث والفرار والنّجاة.

لم ينجُ من مذبحة المخيّم سوى ابنتها الصّغرى ودفتر صورها الذي كانت تمارس فيه هوايتها بالاحتفاظ بصورة لكلّ فرد من أفراد أسرتها،وكأنّها تعوّذهم من الموت والشّر والاندثار إن احتفظتْ بصورهم في دفترها الذي تعرضه على كلّ من يزور بيتها،وتشرح له مطوّلاً عن صاحب كلّ صورة،وتستفيض في الحديث عن حياته وطبيعته وطباعه أرغب من يزورها في هذا الشّرح المطوّل أم لم يرغب،فحماسها لعرض مجموعة صورها يمنعها من أن تلتقط عدم رغبة الزّائر في استعراض الصّور وسماع الحديث عنها.

تاهت الابنة الصّغيرة أسبوعاً في تخوم المخيّم تبحث عن مأوىً لها،عندما تعبتْ من المشي توارت داخل حشائش نابتة على امتداد مجرى التّصريف الصّحي،وجلست تمزّق صور الدّفتر صورة تلو الصّورة بعد أن فني أصحابها جميعاً في مذبحة المخيّم،لم تستبقِ إلاّ صورتها الملوّثة بالدّماء،طوتها،ودسّتها في جيبها،ومن جديد عادتْ تمشي لتبحث عن مأوى أو معين قبل أن يدركها الوهن،فتعجز عن الحركة،وتموت وحدها في هذا المكان،فهي مصمّمة على أن تبقى على قيد الحياة.

دجاجة

يخشى الموت والصّدام والتّعذيب والمواجهة،لذلك لم يشارك يوماً في أيّ عمل مقاومة للعدوّ الصّهيوني،وظلّ يعيش كدجاجة مزرعة جبانة،ولكن ذلك لم ينجهِ من أن يعتقله الصّهاينة،وأن يلقوا به في المعتقل بين أبناء شعبه.

كان مخطّطه يقتضي أن يحافظ على عقيدته في الجبن حتى يخرج سالماً من المعتقل،ولكن ما إن تعهّده الفدائيون الفلسطينيّون الأسرى بالتّعليم والتّثقيف حتى صنعوا منه رجلاً حقيقيّاً يليق به أن يكون فلسطينيّاً.

خرج من المعتقل يبحث عن عدوّه في الدّروب،كان يشعر بأنّه الأقوى،رفع رأسه لأوّل

مرّة في حياته،ولم يعد يستسيغ الإطراق في الأرض كدجاجة،بل غدا ينظر نحو السّوامق كنسر أصيل.

رَكْض

هو رجل راكض يحتضن طفلة صغيرة عمرها ثلاث سنوات،ليس عنده طاقة ليشرح لكلّ من يقابله لِمَ هو مصمّم على الرّكض نحو البعيد،يرفض أن يكلّم أيّ بشر،ويتّخذ أبعد الطّرق إن كانت نائية بعيدة عن البشر ليصل إلى مبتغاه،هو لا يعرف إلى أين يذهب،لكنّه سيظلّ يركض حتى يصل إلى مكان يُرقد لهاثه فيه،ويقنع ذراعيه بأن تفكّا حصارهما عن ابنته الصّغيرة الشّاحبة الوجه والحركات واللّفظ.

أيّام طويلة قضاها في هذا الرّكض المسعور بين جدّة فيه وهون وفق ما تحتمله نفسه التي تخور تحت أحزانه ومخاوفه وصور القتلى الفلسطينيين في مخيم (اليرموك)حيث رأى أبشع أشكال موت البشر على مهل جوعاً وعطشاً ومرضاً وحزناً وخوفاً.

لم يهرب من المخيّم جبناً منه،ولكن إشفاقاً منه على زوجته المريضة وأطفاله السّبعة الصّغار،لكنّه لم يستطع أن يعصمهم من مخانق التّيه والهرب والتّشرد والجوع والعطش والبرد؛جميعهم هلكوا منه في درب الهروب وهم مدفعون عن الأبواب،ملاحقون بذنب فلسطينيّتهم.

وصل أخيراً إلى هذا النّهير الصّغير في الغابة الأوروبيّة،هي آخر ما عليه أن يقطع ليحطّ الرّحال لاجئاً في هذا البلد.

الجوّ صقيع،ولا وقت أمامه يضيّعه في هذه الغابة،وابنته الصّغيرة تكاد تنطفئ جذوة حياتها مرضاً وجوعاً وبرداً،قرّر أن يقطع النّهير وهو يحملها إلى حيث يأمل أن يجد فرصة للحياة لها،ماء النّهير أبرد ممّا تعني البرودة في قاموسه،لا يبالي بهذا البرد،يرفع طفلته فوق كتفيه،و يغوص في الماء إلى ترقوته التي ترتجف تجمّداً.

أخيراً يصل إلى الضّفة الأخرى،يضع طفلته على الأرض،يتفقّد أنفاسها التي تبشّره بأنّها

على قيد الحياة،ويهجع أرضاً إلى جانبها دون حياة.

الحلوة

قابلها في مخيّم (عين الحلوة) في لبنان،وقع في عشقها منذ أوّل مشاجرة وقعت بينهما عندما غازلها بكلماته اللّبنانيّة الرّقيقة،فردّتْ عليه بأسوأ ردّ بصلف فلسطيني لا يحتمل خدش كبريائه،كالتْ له السّباب والشّتائم،ولكنّه وقع في عشقها؛فقد أعجبته روحها المهر،وجمالها المتواري قصداً خلف السّلاح في سبيل قضيّة تؤمن بها.

خلف لباسها العسكريّ الذي يلبسه أشبال الفدائيين الفلسطينيين تُخفي رقّة ذائبة تقطر أنوثة وحناناً،لو لم تكن تحمل السّلاح لكانت تحمل سلّة زهور،وتمرح بها في سهوب الأرز،ولذلك قد أسماها(الحلوة)

قرّر أن يتزوّجها،ووافقتْ على الزّواج به دون تردد،كانت تسخر من لجهته النّاعمة الرّقيقة،لكنّها كانتْ ترى صلابة الرّجال الأقوياء خلف هذه الرّقة الظّاهريّة المراوغة،كانتْ تسخر علناً من عشقه لها،ولكنّها تختال في نفسها بهذا الوسيم الأشقر المتيّم بها.لقد كان مصمّماً على أن ينجب منها طفلاً على شاكلة سمرتها وعنادها وجرأة روحها.

لكنّها غدرتْ به،وتركته لتلحق صوت الواجب،لقد انتقلتْ للنّضال المسلّح في فلسطين.

لم يتألّم من ابتعادها عنه،فهو يعلم أنّها أسيرة عشق أكبر،حمل سلاحه،وقرّر أن يلحق بها،فهو مصمّم على أن ينجب منها طفلاً شجاعاً وعنيداً.

عائشة ألوان

هم يثقون فيها لأنّها هي معلّمتهم الجميلة التي علّمتهم الرّسم،كانت تشتري الألوان والأوراق لمعظم الأطفال في مخيّم (اليرموك)،إذ إنّهم لا يستطيعون أن يدفعوا أثمان شرائها بسبب عوزهم،هي من علّمتهم أن يرسموا الحياة جميلة متّسعة فرحة على عكس الحياة التي يعيشونها في هذا المخيّم.

هم يصدّقونها، ويثقون بوعدها لهم بالرّجوع إليهم فور إحضار بعض الطّعام والمساعدات الطّبيّة للمخيّم، وهم الآن في انتظار عودتها، لكنّها لم تعد بعد.

سمعوا أنّ الجيش المتناحر على أبواب المخيّم قد قبض عليها بجرم تهريب الطّعام والأدوية إلى مخيّم (اليرموك) المحاصر منذ دهر، لقد عذّبوها هناك حتى ماتت عشرّات المرّات قبل أن تموت ميتتها الأخيرة.

هي لم تعد إلى المخيّم، ولم تفِ بوعدها لتلاميذها الذين يحبّونها، ويسمونها آنسة (عائشة ألوان)، لكنّهم يرفضون أن يستسلموا لفكرة موتها، ويشرعون يرسمونها على جدار المدرسة باسمة نضرة عائدة إليهم محمّلة بالمؤن والدّواء، ويلبثون ينتظرونها، فهي لا تخلف ميعادها معهم أبداً.

فلسطيني

لا يعرف تسويغاً لعذابه إلاّ أنّه فلسطيني، وهو صغير قالوا له إنّ وطنه قد سُرق لأنّه فلسطيني، عندما كبر قصف الشّقاء زهرة شباب والده وهو يرزح تحت نير عذاباته ومطاردته للقمة عيشه وعيش أسرته لأنّه فلسطيني، أخته الكبرى أكل الشّلل قدمها اليمنى، ولم تجد أسرته المال لعلاجها لأنّه فلسطيني، عاش طوال عمره في مكعب حقير من الصّفيح مصلوباً على قارعة الانتظار في جغرافية موحلة منتنة خلف حدود الوطن لأنّه فلسطيني.

عندما كبر تعلّم أن يحزن، وأن يجوع، وأن يعرى، وأن يرى تقتيل شعبه بأمّ عينيه لأنّه فلسطيني! تعوّد أن تزدحم ذاكرته بالشّهداء والرّاحلين والمختفين والمبعدين والمعتقلين والغائبين مؤجلي العودة لأنّه فلسطيني.

عندما غادره الحلم لم يأبه لرحيله لأنّه فلسطيني، وعندما أراد أن يبكي على استحياء لأنّ إدارة المخيم صادرت (البسطة) الصّغيرة التي يملكها بحجّة أنّها تشوّه الوجه الحضاري للمخيم غالب دموعه وزجرها خجلاً من البكاء الذي لا يليق به لأنّه فلسطيني!

فَخَار

وظيفته الأساسيّة في الأسرة تنحصر في أن يحمل حذاء أخيه الأسود الملمّع الذي تشاركت الأسرة كلّها لأجل شرائه ليبدو ابنها البكر الموظّف في حكومة هذه الدّولة في خير صورة تشرّفه، ولا تحرجه بحذاء مغموس بوحل المخيّم الذي يغمرهم بطوفانه المقيم في الفصول جميعها.

هذا الابن البكر هو طوق النّجاة للأسرة كلّها، نقوده القليلة هي من تطعمهم أجمعين، وتعفي والده العجوز من أن يعمل في أعمال العتل في سوق القمح في أطراف المخيّم لينقسم ظهره مرّة أخرى.

يلبس الأخ البكر بذلته السّوداء الوحيدة التي يملكها، وينتعل حذاءً بنّي اللّون قديم، ويسير بخطى واسعة سريعة مختالاً كطاووس، وخلفه يسير الأخ الأصغر يحمل حذاءه بإجلال وفخار.

عندما يصلان إلى الحافلة في موقف النّقل في قلب المخيّم، يجلس أخوه الأكبر في مقعد من مقاعده، ويخلع حذاءه الموحل القديم، ويناوله لأخيه الصّغير من نافذة الحافلة، وينتش منه الحذاء الأسود النّظيف، وينتعله كي يذهب به إلى عمله دون أن يلطّخ الأماكن التي يسير بها بوحل المخيّم.

يعود الأخ الصّغير فرحاً إلى بيته لأنّه قام بمهمته اليوميّة الأساسيّة في تحديد مصير الأسرة أكانت ستجد ما تأكله إن بقي ابنها البكر على رأسه عمله، أم أنّها ستتضوّر جوعاً إن طردوه من عمله بسبب حذائه الملطّخ بطين المخيّم.

المخيّم

لن ترحل هذه المرّة عن هذا المخيّم ولو اضطرّت إلى أن تُقاتل الدّنيا كلّها، لم تعد تُطيق أن تهجّر من مخيّم لتلجأ إلى آخر، حياتها سلسلة من المخيّمات والتّهجير والعذاب والمعاناة

والقهر، في كلّ مخيّم خسرت جزءاً من ذاتها وبعضاً من أفراد أسرتها حتى لجأت إلى هذا المخيّم ليس معها إلاّ طفلاها وبذلة زوجها الفدائي وبندقيته وأثاث يضيع في بيتها الغرفة لقلّته على الرّغم من ضيقها.

رضيتْ بكلّ حرمان واضطهاد كي تحافظ على حياة طفليها، والآن هناك من يهاجمون المخيّم كي يحتفلوا بإراقة الدّم الفلسطيني في نزهة قتل وتشريد واغتصاب يحلو لهم أن يقوموا بها في أرجائه كيفما اتّفق، لا تريد أن تعرف من المهاجم هذه المرّة، لا يعنيها اسمه أو دينه أو جنسيته أو لغته أو هدفه أو فكره؛ فجميعهم سواء عندما يقتلون الفلسطيني، الموت ذاته يتحالفون معه، وهي ستقتل من يهاجم المخيّم أيّاً كان، لن تكون أمّاً فلسطينيّة تذود عن أطفالها وحسب، بل ستلبس بذلة زوجها، وتحمل سلاحه لتدافع عن المخيّم ضد المهاجمين أيّاً كانوا، فهي لن تسمح بأن يموت طفلاها في هذه اللّعبة الجهنّميّة.

تغلق باب بيتها الغرفة على طفليها، وتخرج مع الخارجين المدافعين عن المخيّم، تُقاتل على تخومه بشراسة، تصطاد الرّؤوس الشّريرة بغريزة الأم المدافعة عن أطفالها وعن أطفالها الأمّهات القابعات في بيوتهنّ، وفي المساء تعود إلى بيتها الغرفة مضرّجة بدم مَنْ قتلت، وبدم جروح أصابتها من شظايا انفجار، تجد طفليها في انتظارها، تتكوّم أرضاً خلف الباب، تأخذهما إلى صدرها، وتنخرط وإيّاهم في بكاء مخنوق.

(كرت) المؤن

يصمّم الصّبي الصّغير على أن يعمل في العطلة الصّيفيّة لعلّه يجني بعض المال ليشتري بنطالاً وقميصاً وحقيبة جلديّة بدل حقيبة القماش التي خاطتها أمّه له من ثوب قديم لها قد بلي بعد أن أنهكته لبساً وغسلاً ونشراً وطيّاً. حاول أن يجد عملاً في المخيّم فلم ينجح في ذلك؛ فلا أحد يرغب في توظيف طفل صغير بجسد هزيل وقامة قصيرة، لذلك قرّر أن يجد عملاً ما خارج المخيّم يتناسب مع جسده الصّغير العاجز عن العتل والصّراع والجري والتّدافع.

عرض حاجته على بعض أصحاب المتاجر،لكنّهم زهدوا به إلى أن صادف اهتماماً من تاجر عجوز أزرق البدن والابتسامة،رجاه أن يجد له وظيفة عنده،أخبره بأنّه فلسطيني من المخيّم لعلّه يحظى بالوظيفة إن استدرّ عطفه،وشرح له مدى حاجته لهذا العمل،أنكر التّاجرعليه أن يكون فلسطينيّاً،وبعد جدال طويل قرّر الصّبي أن يثبت له أنّه فلسطيني لعلّه يحظى بوظيفة ما عنده طالما أنّه مهتم لسبب يجهله بالتّحقّق من فلسطينيّته.

صفّق الصّبي بجوارحه وحماسه ليحضر (كرت المؤن) من بيته في أسرع وقت ممكن كي يثبت للتّاجر أنّه فلسطيني،إذ لا يملك وثيقة غيره تثبت حقيقة أصله،قدّم (الكرت) للتّاجر وهو يلهث،ولا يقوى على التقاط أنفاسه تعباً وحماساً وتوتّراً وطمعاً في الحصول على عمل،ألقى التّاجر نظرة ازدراء على (كرت المؤن)،ودفعه أرضاً بضربة من رأس إبهامه،وقال له باحتقار:»هذا يثبت أنّك فلسطيني متسوّل،هيّا اغربْ عن وجهي،لا عمل لكَ عندي».

تناول الصّبي (الكرت)عن الأرض جريح الـرّوح،وشـدّ قبضة يمينه عليه كي لا يضيّعه،فتفقد أسرته مخصّاصتها الشّهريّة من المؤن،وأطلق ساقيه للرّيح عائداً إلى بيته كي لا يرى التّاجر دموعه،فيشمتْ به.

عقوبة

كانت تتوقّع أن تحصل على تكريم خاصّ من مديرة المدرسة التي تدرس فيها بعد أن حصلتْ على المرتبة الثّانية في مسابقة الشّعر على مستوى الدّولة التي تعيشه فيها لاجئة بعد طردها وعائلتها من مدينتهم الفلسطينيّة السّاحليّة.

إلاّ أنّ المديرة بدت كثعلبٍ أحمق أحرقت النّار ذنبه،اقتربت منها،وسألتها بتقزز: «أحقّاً أنتِ فلسطينيّة يا بنت؟»

شعرت الطّفلة الصّغيرة بتهمة ما تحاصرها على جريمة لم تقترفها،هداها فكرها المتلعثم إلى أن تدافع عن نفسها بردّ التّهمة الموّجه إليها على حين غرّة:»ولكنّني أحمل

الجنسيّة...!»

مطّت المديرة صدرها بفخرٍ رعوي جاف،فبرز ثديّاها ضخمين متهدلين كقربة ماء جرباء،وقالتْ لها:»يا وقحة،غادري هذه المدرسة،ولا تعودي إليها إلاّ مع وليّ أمركِ».

طارت الطّفلة خارج غرفة المديرة،وهي لا تصدّق أنّها لا تزال على قيد الحياة بعد أن ثبّتتْ عليها بالدّليل والبرهان والاعتراف الصّريح جريمة أصلها الفلسطيني.

وظلّتْ طوال طريق العودة إلى البيت تشكر الله على أنّ مديرتها لم تكتشف أنّها تعيش في المخيّم،إذن لصلبتها على باب المدرسة تنكيلاً بها على هذه الجريمة النّكراء.

كماليّات

مندوب من منظّمة (الأونروا) يقدّم محاضرة لطلبة المدرسة الابتدائيّة في المخيّم حول التّخلّي عن الكماليّات من أجل الانتصار على الجّوع،يعرض صوراً إلكترونيّة عبر نظام العرض الإلكتروني الحاسوبي الذي أحضره معه حول الكماليّات في الطّعام،إنّه يضع في قائمة الكماليّات كلّ ما لذّ وطاب من طعام وسكاكر ولحوم وأطايب أخرى لا يعرفون لها اسماً،ولم يرونها في تاريخ مخيّمهم الصّدئ.

يتابعون صور هذه الأطايب بحسرة وتشهٍ،وهي تعرض أمام جوعهم كرقصّة ذبيح على بلاط معبد،ثم يضربون عنها بأمر من المندوب السّمين ومعلّماتهم المعسكرات في باحة المحاضرة ضبطاً لجوعهم،بحجّة أنّها كماليّات،وينسرحون يسمعونه يحدّثهم عن تحضير أطباق غذائيّة من زيت الصّويا حيث يقدّم لهم الكثير من العناصر الغذائيّة الأساسيّة التي هم في حاجة لها لنموهم.

يظلّون يسترقون النّظرات العاجزة على صور الكماليّات المعروضة أمامهم على جدار العرض الأبيض،ويتمنّون بصمت مُتواطئ عليه لو أنّهم يظفرون بهذه الكماليّات.

كمان

الموت وحده هو من ينتظره في هذه اللّحظات في مخيّم (اليرموك) الذي يسكنه،لا طعام أو شراب أو أمن أو منقذ أو دفء أو دواء أو درب مهرب،ليس هناك إلاّ حطام يتناثر البشر في أجمته،وقصف معتوه يحاصرهم من كلّ مكان،وجنود موت يتربّصون بهم عند أبواب المخيمّ،وأيادٍ سوداء تتخطّف من تريد منهم بسهولة،وتدفنه في عذاب معتقلات المتناحرين على السّلطة في سوريا حتى الموت.

لا يعرف لِمَ مخيّمه لقمة في أفواه المتناحرين والمتخاصمين،لكنّه يعلم أنّ تلك الوجوه الفلسطينيّة التي يحبّها في هذا المخيّم قد طاردها الموت حتى أتلف حياتها،وأهدر آمالها.

أمّه ماتت في هذا الحصار بسبب نقص الدّواء،وطفلا أخته التي تعيش معهم منذ موت زوجها قد ماتا بسبب سوء التّغذية،وحبيبته (زينب) أخذها جنود التّناحر ليلاً،وألقوا بها فجراً أمام المخيّم جثّة عارية من ملابسها ومن أنفاس الحياة.

الجميع الآن يعانون من العطش الشّديد،إذ لا ماء في المخيّم منذ أيّام عدّة،ولا مطر في الصّيف ينجدهم ممّا هم فيه من ظمأ.

يقرّر أن يموت بالطّريقة التي يختارها هو،لا بالطّريقة التي يختارها له الوحوش الذين يحاصرون المخيّم،يخرج إلى ذلك الدّمار الذي يحيط به،ويأخذ كمانه الحبيب الذي اشتراه بحملة أسريّة كاملة من التّبرّعات كي يحصل عليه،هو يجيد العزف عليه بالتّعلّم الذّاتي وببعض الحصص التي علّمها له الموسيقي الفلسطيني الذي يحمل الجنسيّة الدّنماركيّة حين جاء في زيارة للمخيّم قبل أعوام انصرمت.

يبدأ يعزف على كمانه الحزين أحزان العطش،يقرّر أن يظلّ يعزف حتى يقضي العطش عليه،فهذا الموت الذي يختاره،ويقبل به،وهو أن يموت وهو يعزف، ،يتجمّع حوله كلّ من يسمعه من سكّان المخيّم،يعزف لثلاث ساعات كاملة دون توقّف،يحلّق بموسيقاه في سماء الارتواء،ويحلّق أهل المخيّم معه في سمائه،وفجأة في أشدّ ساعات النّهار حرارة

ينزل المطر!

نهر البارد

أحلامه وعمره وسنوات عذابه وأعوام غربته تنهار كلّها أمام عينيه مع تفجير بيته أمام عينيه في مخيّم (نهر البارد) في لبنان إثر صراعات داخليّة وخارجيّة دامية،يلخّص كلّ ما يجري في كلمتي مؤامرة وخيانة.

كلّ ما أنجزه في حياته يتلخّص في بناء منزل من الطّوب الأحمر من أربعة طوابق ليأوي فيه أسرته وأسرتي أخويه وأمّه وأخته العانس المريضة.

هاهو عالمه وسعيه وسنين طويلة من عمره ينهار أمام عينيه مع انهيار منزله.يجلس على كرسي خيزران أعرج القدم ملوّح اللّون من شمس طرقته لسنين،يشرع يدخّن سجائره،لا يأبه بأحلام أو ندم أو حزن،ويشرع يفكّر في خطّة محتملة لبناء بيت جديد في زمن قادم،فهو لا يقبل بالخسائر أبداً.

٤

تقاسيم الشّتات

إقامة

أيّام قليلة،وينتهي تصريح إقامتها وإقامة أبنائها السّتّة في هذه المدينة الحارّة النّائية من بلاد العرب حيث يسمّونها أجنبيّة،ويسمّون الأجنبي مواطن!

عليها أن تغادر هذه المدينة إلى خارج الدّولة في غضون أيام؛فهنا لا يعترفون بفلسطينيّة وحيدة انتهى تصريح إقامتها،وفقدت منذ سنين هويتها الفلسطينيّة التي تسمح لها بالعودة للعيش في مدينتها في فلسطين،وذلك بسبب التحاقها منذ سنين بزوجها الذي يعمل في هذه المدينة الموحشة الرّوح،الدّبقة الإحساس،الميّتة الحنوّ.

زوجها فارق الحياة قبل شهرين بأزمة قلبيّة بعد أن أضرب قلبه عن العمل استسلاماً لأحزانه بعد سنين من العمل والهوان في هذه المدينة التي امتصّت شبابه وصمته وأحلامه وكرامته دون رحمة.

طرقت أبواب المدينة جميعها أملاً في تجديد تصريح إقامتها،إذ لا مكان تذهب إليه في هذه الدّنيا إن غادرتْ هذه المدينة،ولكن أيّاً من الأبواب لم يُفتح لها،ولا مجيباً رحيماً أو رؤوفاً رقّ لها.

حزمت حقائبها وأبناءها السّتة احتياطاً لأيّ مداهمة شرطيّة قد تُلقي بها خارج الحدود، بعد أن صرفت آخر ما تملك من مال،وباتت تنتظر الرّحيل القسريّ الذي تجهل متى يداهمها مثل موت،وكلّما سألها طفل من أطفالها السّتّة عن وجهة سفرهم حضنته،وغربتْ في نحيب جهوريّ لا يؤمن بأنّ صوت المرأة عورة،وقالتْ له بحيرة وضياع:»لا أعرف إلى أين علينا الرّحيل».

البحر

هناك في بيتها الصّغير المنزوي في إحدى الدّروب الضّيقة في مخيّم (اليرموك) لطالما حلمت بأن ترى البحر،وأن تركب سفينة تتهادى على صفحته الزّرقاء الرّائقة بصحبة أفراد

عائلتها،البحر والسّفينة والرّحلة البحريّة بصحبة أسرتها كانت أحلامها المائيّة الملازمة لروحها التّائقة للمسافات والزّرقة والسّماء الرّحبة بعيداً عن زحام هذا المخيّم واكتظاظه وضيقه على الرّغم من مساحته الكبيرة.

الحرب الأهليّة السّوريّة افترست بيتها ومخيم (اليرموك)،وشرّدت أهله أجمعين،وضمّتها وأسرتها إلى جموع المهجّرين قسراً هرباً بحياتهم والباقي النّزر من كرامتهم التي هُدرتْ مرّة تلو الأخرى في هذه الحرب لأنّهم ضعفاء لا لشيء آخر.

هاهي الآن في سفينة مكتظة بالمهجرين الفلسطينيين متّجهة إلى إحدى الدّول الأوروبيّة،هي سفينة مهاجرة بشكل غير شرعي،وهاهو البحر يضرب سفينتهم دون رحمة،ويمزّق شراعها،ويبتلعها على هون بنكهة فزع وصراخ من عليها دون منجد أو معين.

البحر خدع أحلام طفولتها،الآن تكتشف متأخّرة هذه الخديعة الموجعة،وهاهو ينقضّ عليها ليبتلعها كما ابتلع أمام عينيها الكثير من ركّاب السّفينة ،لا تقاومه،ولا تتضرّع للسّماء طلباً لعون أو إنقاذ أو معجزة،تغمض عينيها،وتستسلم تماماً للبحر الذي يسلّمها إليه على عجل ابتداءً من رأسها؛فهي لا تزال تحبّ البحر حتى ولو خدعها،وغدر بها.

الصّفعة

من جديد يأتي جيرانه يشكون ابنه،يعاجلونه في المحددة التي يعمل أجيراً فيها بعريضة شفويّة من التّهم الكيديّة لابنه الصّغير الشّقي الذي ضرب -مرّة أخرى- أحد أبنائهم. يغضب الأب بشدّة،ويحمرّ مثل الحديد الذي أخرجه للتّو من أتون الصّهر،يستجوب ابنه الصّغير أمامهم ليعرف ما سبب ضربه لابن جارهم،فيكتشف أنّ سبب ضربه له هو السّبب ذاته الذي يضربه ويضرب غيره من الصّبية أترابه بسببه؛فقد عيّره هذا الصّبي من جديد بأنّه لاجئ فلسطيني.

يصفعه أبوه صفعة تطير الشّرر من عينيه،يعاند دموعه كي لا يشمّت به الصّبي الذي

ضربه،يغادر الجيران راضين بهذه العقوبة التي وقعتْ عليه للتّو.يشّيعهم بنظرات شزرى حاقدة،يشّده أبوه من كتفه،فيكاد يخلعه،ويسأله من جديد: «هل حقّاً نعتكَ باللاجئ؟!»

- «ونعتني بابن الكلب أيضاً».
- «وهل ضربته ضرباً موجعاً؟!»
- «أبرحته ضرباً».
- «أحسنت يا بني.سلّم الله يمينك»

الرّسام

ربع قرن من عمره المضنى بالغربة والتّهجير أمضاه في بلاد الصّقيع يرسم وطنه فلسطين في لوحات شتّى،يبيع القليل منها كي يؤمّن لقمة عيشه التي تكفل له أن يظلّ على قيد الحياة في شقة صغيرة كجحر اكتراها منذ زمن طويل بأجرة بخسة،أمّا باقي اللّوحات فيرصد ريعها لدعم بعض العائلات الفلسطينيّة المنكوبة المقيمة في مدينته وللإنفاق على أولاد أخيه الشّهيد الذين يعيشون في مخيم كئيب حزين في لبنان.

يشعر بأنّ الموت يداهم جسده الذي هو بعمر قضيته الفلسطينيّة.كيف له أن يسمح للموت بأن يسرقه من حلمه الورديّ بالعودة إلى وطنه ليدفن في ترابها؟!

يكابر على ألم سكرات الموت التي تتنازعه،ويشرع يرسم لوحته الأخيرة.لقد رسم طوال عمره لوحات لوطنه فلسطين،لكنّه لم يرسم في أيّ يوم مضى باباً يؤّدي به إلى وطنه.

مع طلوع الشّمس أنهى رسم اللّوحة،كانت لوحة لباب كبير مطوّق بأشجار الياسمين البريّ،وله مزلاج نحاسي كبير على شاكلة باب جدّه في قريته السّليبة.

فارقتْ روحه جسده بدعة،وداعبته مودّعة بنقر أصابعه التي لم تنفكّ تمسك ريشة رسمه،وفتحت الباب المرسوم في اللّوحة،ودلفتْ إلى فلسطين لتحقيق حلمه الوحيد بالعودة إلى وطنه،ثم أقفلت الباب خلفها.

سمكة

كان صيّاداً فلسطينيّاً قد ورث البحر عن أسلافه كما ورث زورقه وشباكه وقصصه وأساطيره وسمكه ونوارسه ومدّه وجزره،لكنّ الصّهاينة جعلوه ضائعاً في الأرض يطرق الموانئ والبحار والمحيطات والسّفن يبحث عن بحر غزّة بعد أن أبعدوه مع الكثير من الصّيادين،تلقّتهم اليونان في أوّل تطوافهم المائيّ السّخط،ثم بعد ذلك غادرها ليبحث عنه في كلّ مكان،لكنّه ظلّ سمكة خارج ماء الحياة.

لم يجد نفسه بعيداً عن بحر غزّة،التحق بالمقاومة المسلّحة الفلسطينيّة،وعاد سرّاً إلى وطنه مع بعض الفدائيين.البحر أوّل من صافح عينيه من وطنه،تنفّس ملء رئتيه ليبتلع نسيم البحر كلّه،وزفر ما تنفّس بقوله:»آه يا بحر غزّة!«

مقايضة

منذ أن هُجّر قسراً من فلسطين وهو يحلم بالرّجوع إليها،مخطّطات حياته كلّها كانت تدور حول الاستعداد لهذا المخطّط المصيريّ،حتى زواجه من تلك الأجنبيّة كان لأنّها أبدت له تعاطفاً عريضاً مع القضيّة الفلسطينيّة،وأكّدت له أنّها تناصرها مناصرة كاملة،الأموال التي جمعها في ذلك البلد الذي يفصله عن وطنه بحور وجبال وسهول كانت لأجل العودة إلى وطنه،تلك الابنة الجميلة التي رزقه الله بها أنشأها لتكون أمّاً فلسطينيّة،وذلك الابن الباسق الفتوّة والبأس أعدّه غرساً صالحاً لأجل أن يُزرع من جديد في تراب وطنه.

دفع شطر ثروته العملاقة التي حصّلها من تجارة الأخشاب رشوة للصّهاينة الخونة كي يحصّل هويّة فلسطينيّة بعد أن أُنتزعت منه منذ سنين طويلة،والشّطر الآخر من ثروته دفعه كاملاً إرضاء لزوجته الأجنبية التي كشّرت عن أنيابها،وفضّلت الأموال على أيّ قضيّة عادلة في هذه الدّنيا أيّاً كانت،لقد دفعه لها برضا كامل كي تتنازل له عن حضانة ابنيهما،فوافقتْ على ذلك دون تردّد،أخذتْ المال،وأخذ ابنيه الفلسطينيين ليعود بهما إلى

وطنهما، فهناك مهمة مقدّسة تنتظرهما هناك.

حذاء أبيض

في ليلة مداهمة قريتها من قِبَل عصابات الصّهاينة ضاعتْ عن أهلها لأيام طويلة لأنّها تأخّرت عن الهرب معهم كي تلبس حذاءها الأبيض الجديد الذي تقطّعت نياط قلبها رغبة في شرائه، وحلمت به لأشهر طويلة، وخاضت لأجل الحصول عليه حروباً حامية الوطيس دامية الدّموع والجدال لأجل أن تجبر أمّها على شرائه لها من نزير مصروف البيت.

ما كانت لتضحّي بهذا الحذاء الأبيض الأثير، ولو أدّى ذلك إلى أن تتأخّر عن ركب أهلها الخائفين من الفتك والقتل وهدر شرفهم، وهي من بخلت على قدميها بانتعاله كي لا يهترئ.

لقد وجدتْ أهلها بصعوبة في مخيمات الحدود بعد أن نهشها الخوف، وعصرتها الأيدي الباحثة لها عن درب وسط أرتال من اللّحم المضنى الملقى على قارعة الطّريق تحت شمس تسلقهم دون رحمة.

أربعون عاماً مضت وهي لا تنام إلا منتعلة حذاءها أكان أبيض أم غير أبيض خوفاً من أن تضيع عن أهلها من جديد، أو يضيع أهلها عنها بسبب حذاء أثير.

أجيرة

تجوب الحقل بثوبها الفلسطيني المهترئ الذي نجا وحده من محرقة الاجتياح الصّهيوني التي اجتاحت أرض قريتها، فسلختهم عن حياتهم وكرامتهم وصفو عيشهم وحنون جمعتهم، وألقت بهم لاجئين ضائعين في دروب الدّنيا، الآن هي تعمل أجيرة مستعبدة في قطف ثمار الطّماطم في حقل ذلك الجلف النّحيف ذي الأصداع المطبّقة، والصّدر الذي مُطّ باتّجاه تجويف البطن، ودفع أضلاعه يابسة مشينة مسيئة لعيني كلّ ما يلقى نظرة

عليه،هو جثّة متعفّنة منتصبة على قدمين.

لا تبغي من هذا العمل المهين إلاّ أن تؤمّن الخبر والماء النّظيف وبعض الخضار والأرز لزوجها المقعد وحماتها المسنّة وأطفالها الكثر،تعمل من شروق الشّمس حتى غروبها مثل ثور مربوط العينين بساقية ملعونة لا تتوّقف عن الدّوران،اللّجوء القسريّ حوّلها من صاحبة أرض ميسورة الحال مصونة الكرامة إلى لاجئة فقيرة معدمة تخشى أن تُطرد يوماً من عملها،فيموت زوجها وأولادها وحماتها جوعاً.

ذلك الرّجل الجيفة صاحب الأرض يريد أن يهتك عرضها إلى جانب استحواذه على عرق جبينها وكدّ جسدها ثمناً لقروشه القليلة،يطاردها في أرضه ليل نهار،ويحاول أن يستفرد بها بأيّ شكل من الأشكال كي يسلبها عزيزها،ترفض ذلك،وتسبّه،تمسح عرقها بردني ثوبها القديم ذي الحرير الأخضر المهترئ،وتقرّر أن لا تخضع له حتى ولو ماتت أسرتها كاملة جوعاً في سبيل أن تدافع عن شرفها،فهو ليس للبيع،ولا ثمناً لحياة أحد.

ابن شهيد

هو الأوّل في صفّه،يحاول أن يتقرّب من زملائه،لكّنهم يصّدونه حسداً من عند أنفسهم،يغيظهم أنّ هذا الطّالب الفلسطيني المعدم الذي يفوقهم ذكاء وتحصيلاً،ويحظى بحبّ معلّميه واحترامهم،لم يأتِ إلى هذه المدرسة إلاّ منذ عام،وعلى الرّغم من ذلك تفوّق عليهم جميعاً،يغيظونه بالقصص التي يحيكونها حول التحاقه بمدرستهم،بعضهم يلقّبونه بالطّريد،وآخرون يلقّبونه باللاجئ،وثلة أكثر قسوة وغلظة قلب يلقّبونه بالشحّاذ،لكنّه يظلّ صامتاً لا يردّ عليهم إساءتهم بأيّ إساءة،فيزدادون شططاً وغيّاً في الإساءة إليه.

فاض حقدهم عليه،فكوى قلوبهم،تربّصوا به عند خروجه من المدرسة وهو ينوء تحت ثقل حقيبته المدرسيّة العتيقة،تكاثروا عليه على حين غفلة،وانهالوا عليه ضرباً وسباباً وتحقيراً،مزّقوا قميصه عنه،هو القميص الوحيد غير المهترئ الذي يملكه،لم يستطع أن يمنع دموعه من أن تذلّه أكثر أمام ضاربيه من الصّغار الحاقدين،لم يمسحها،بل حدّق بهم

دون حراك، وقال لهم مستهجناً ضربهم له: »أنا ابن شهيد«.

خيمة

الجدّة تصمّم على أن تروي حكايات التّغريبة الفلسطينيّة لحفدتها كي لا ينسوا أصلهم وقضيّتهم ومعاناة شعبهم، الحفيدة الصّغيرة الأكثر ألمحيّة تسأل الجدّة بحرقة: «لماذا يا جدتي في نهاية الحكايات كلّها التي ترونها لنا الفلسطينيون يفقدون بيوتهم، ويُهجّرون من أراضيهم، ويجبرون على الرّحيل، ويسكنون في خيمة في مكان ما؟»

تصمت الجدّة، وتشعر بخوف يتربّص بها خلف إرهاصة هذا السّؤال البريء، وتسأل نفسها بتهيّب وتكتّم: »أهناك رحيل من جديد؟ وخيمة أخرى في انتظارها في مكان آخر؟«

تؤمّل نفسها بموت هادئ بعيداً عن خيمة النّفي والطّرد والتّرحيل، وتتعوّذ من الشّيطان الرّجيم الذي يوسوس لها بالخيمة الملعونة.

قارورة

لا تعرف الكثير عن قضيتها الفلسطينيّة، ولا تريد أن تعرف شيئاً عنها، نصفها الأوروبي قد طغى على نصفها الفلسطيني، ولكنّها تعلم تماماً أنّ والدها الذي تحبّه كثيراً كان يحلم بأن يُدفن في تراب وطنه، هي تريد أن تحقّق له أمنيته الأولى والأخيرة. حاولتْ أن تنقل جثمانه ليُدفن في فلسطين، ولكنّها عجزت عن تحقيق هذا الهدف.

نصحتها أمّها بأن تستسلم للعجز، وأن تدفن والدها في مقبرة المدينة الأوروبيّة، وأن تضرب صفحاً عن هذا العناد الذي يغرّمها دون مغنم، لكنّها كانت مصّممة على تحقيق رغبته الأخيرة وحلم حياته البائدة في أحزان المنافي، أحرقتْ جسده في محرقة الموتى معتذرة له عن ذلك لجلال الغاية، ودسّت رماده في قارورة، وسافرتْ إلى فلسطين في قافلة سياحيّة أوروبيّة، واغتنمتْ أوّل فرصة لدفن رماد القارورة في تراب فلسطين. فعاد والدها إلى تراب وطنه رغم أنف الصّهاينة.

خَرَف

عمره أكثر من مئة عام وازداد عشرة،ولكنّه لا يزال ينتظر أن يعود إلى بيته الذي يسميه (العلالي) في قريته الجبليّة في شمال فلسطين،جنّته الأرضيّة معلّقة في ذلك المكان.

أبداً لم يحدّث أحداً من أبنائه أو عائلته عن حياته في تلك (العلالي) حيث كان الثّري المطاع،وسيّد الجميع.ظلّ يدفن عزّه البائد في صدره وذاكرته وهو يتجرّع المهانة،ويعمل أجيراً بقروش قليلة خارج وطنه بعد أن صرّ زوجته وأولاده،وهرب بهم من وجه الموت.

أصابه الخرف في نزاعه،شهرٌ كامل وهو ينازع في سريره،وحوله مئات الأبناء والبنات والحفدة والأنسباء،كانوا جميعاً حوله لا يفارقونه يسمعونه يحدّث أطيافاً يراها في بيته في (العلالي) في (البلاد) كما يسمّى فلسطين.

تمنّوا أن يطول نزاعه كي يستمتع أكثر بخرفه؛لقد رأوه لأوّل مرّة يضحك ملء شدقيه،كان يعيش تفاصيل حياته الهانئة السّعيدة،ويروي لهم فصول حبّه لزوجته الثّانية(سارة)،رأى أهل قريته جميعاً الأموات منهم والأحياء يحدّثونه ويصافحونه بوقار وإجلال،ويلقّبونه بـ(سيّد العلالي).

أخيراً أسدل الموت جفني جدّهم (كايد الصّالح) الذي عاد بعد فراق طويل إلى (العلالي) في قريته الجميلة في أعالي جبال فلسطين.

صوت

في البعيد خلف البحار والمحيطات والجبال والسّهول حيث كان المهجر القسريّ لجدّه وأبيه وله من بعدهما علّموه زوراً وبهتاناً وحمقاً أنّ الكلمة تغلب الرّصاصة،وأنّ صوت الحقّ أعلى من صوت المدفع.

تكلّم كثيراً،وكتب أكثر،وعلا بصوته يدافع عن قضيّة شعبه الفلسطينيّ.لكنّه سريعاً ما اكتشف أن لا آذان تسمعه هناك،ولا قلوب تريد أن تفقه ما يقول.

على حين يقين خلع كلّ ما علّمه الغرباء له من أفكار معلّبة منتهية الصّلاحيّة،واشترى

بمدّخراته كاملة ما عليه أن يشتري من سلاح، ويمّم نحو وطنه حيثُ السّلاح هو من يُسمع من في أذنيه وقرٌ أو صممٌ أو مرض.

الصّبي المحظوظ

ربت رجل أشقر نحيف ككلب سلوقيّ جائع على كتفي ذلك الصّبي الذي رأى بأمّ عينيه ذبح أفراد أسرته الفلسطينيّة على أيدي الجنود الأبالسة الصّهاينة، ثم داعب شعره الخاروفيّ الأجعد بحنان مصنوع مزخرف، وقال لصحفيّ يسجّل كلامه في ورقه دفتر جلديّ صغير: »بوصفي رئيس طواقم الإغاثة للنّازحين الفلسطينيين أستطيع القول إنّ هذا الصّبي محظوظ جدّاً؛ إذ نجا من الموت في حين ذُبح أهله في طرفة عين«.

حاول الصّحفي أن يسجّل على عجل كلام الرّجل الأشقر النّحيف، لكنّ قلمه عصاه، فما استطاع أبداً أن يكتب كلمة (محظوظ)، وكتب بدلاً عنها كلمة (منكوب)، وأبى القلم بعدها أن يكتب أيّ كلمة أخرى؛ إذ دخل في محراب الخجل من عار الإنسانيّة الصّامتة!

طابور

منذ الصّباح الباكر والشّمس تصليهم دون رحمة في طوابير ذلٍ في انتظار أن يحصلوا على مخصّصاتهم من المؤن التي تُصرف لهم وفق بطاقات إعانة لمنعهم من الموت، ولحبسهم في ضنك موصول لا ينقضي.

ذلك الوغد الضّخم يضربهم بالسّوط كي يمنعهم من التّململ، ويفضّ به أيّ تحلّق حوله من النّساء المنهكات والأطفال الجياع والرّجال الذي يحلمون بأن يأخذوا حصصهم من الطّعام لصغارهم الجوعى بأسرع ما يمكن.

تثور الكرامة في دمه عندما يراه يَصْلي امرأة عجوز بسوطه، يهدّ عليه كجبل يتداعى عليه، يجرّده من سوطه، ويضربه به حتى يدميه، فيأخذ يستجير بمن حوله دون مجير.

يقول له وريقه يتقافز خارج فمه بزفر موصول قد شُفي غليله: »يا ابن الكلب، لماذا

تضربها؟ نحن بشر لا حيوانات، لا نريد طعامكم، نريد أن نموت بكرامة».

يخطو بضع خطوات مبتعداً عن المكان معتقداً أنّ الموجودين في الطّابور قد لحقوا به، يسترق النّظر إلى الذين تركهم خلفه، فيراهم لا يزالون واقفين بذلٍ في أماكنهم ينتظرون حصصهم الضّئيلة من الطّعام، يتوقّف عن المسير، ويجمد في مكانه، يضغط على معدته الفارغة التي تقرقع جوعاً، يطأطئ رأسه، ويعود إلى الصّفّ ليقف من جديد في آخره في انتظار دوره في استلام حصّته من الطّعام دون أن ينبس ببنت شفة.

رسائل شوق

كان صوت (كوثر النّشاشيبي) ما ينتظره في كلّ صبح مذ اعتاد على أن يحمل مذياعه القديم الذي يعمل على البّطاريات إلى كلّ مكان يذهب إليه، يظلّ يتابع عبره برنامج (رسائل شوق) منتظراً بأمل ورجاء وصول رسالة تأتيه من ابنه (جابر) تخبره بأنّه لا يزال على قيد الحياة، يحفظ كلّ رسالة يسمعها في هذا البرنامج، لعلّ اسماً يُذكر فيها يعرفه، فيحمل على عجل بشارة الأمل لأم مفجوعة أو لأب مرهون للانتظار.

يعرف أنّ لا رسالة ستصله من (جابر)؛ فهو قد أُستشهد منذ زمن طويل، ولكنّه يخفي هذا الأمر عن زوجته (لطفيّة) كي لا يقتلها هذا الخبر المفجع، ويخفيه عن نفسه كذلك لا يعدم سببه الوحيد للبقاء على قيدالحياة.

يظلّ ينتظر رسالة تأتيه من (جابر)، ويرهف السّمع لصوت المذيعة وهي تقرأ رسائل الشّوق، ولا يقفل مذياعه إلاّ عندما يسمع المقطع الكامل من أغنية (فيروز) وهي تشدو بأغنية (وسلامي لكم)، ويتجاهل من يتهامسون حوله محوقلون حزناً على عقله الذي غادره منذ أُستشهد ابنه الفدائي (جابر).

طيران

دون سابق إنذار وجد نفسه معصوب العينين حافي القدمين بمنامة النّوم المخطّطة

القديمة منفياً إلى دولة ما بعد البحر الأبيض المتوسّط،بعد رحلة طويلة،عرف أنّه – لسوء حظّه– قد حظي بلقب مُبعد فلسطيني.

منذ ذلك اليوم الذي وجد نفسه فيه بعيداً عن فلسطين،وهو يعمل على مشروع حياتي واحد،وهو أن يعود إلى بيته هناك حيث أمّه وأهله وزوجته وطلبته في المدرسة الابتدائيّة.

جرّب أن يعود إليها بحراً،فانكشف أمره،وغرق زورقه،وكاد يقضي غرقاً.جرّب أن يعود براً عبر أكثر من جهة ففشل ذلك،جرّب الأنفاق الأرضيّة فانهارت عليه،وكادت تدفنه حيّاً خارج وطنه.

لم يبقَ أمامه طريق للعودة إلى فلسطين إلاّ عبر السّماء،يحلّق في سقفها الحارق المشّع،يلمح طائراً حرّاً في السّماء،يحسده على أقداره العلويّة،ويتساءل لو أنّه ركّب جناحين هل يمكنهما أن يحلقّا به إلى مبتغاه الأوحد بكلّ ما يحمل من أوزان ثقيلة من الأحزان والأشواق وخيبات الأمل؟!

قطارات

التقوا على قارعة سفر ودروب افتراق كما يلتقي الفلسطينيون عادة،أتوا من كلّ وطن إلاّ من وطنهم الحقيقي،كي يقطعوا ساعات الانتظار في محطّة القطارات حكوا قصصهم التي تبدأ جميعها بالانتساب الدّقيق إلى أرض ما من أراضي وطنهم الأمّ،وعندما أزف وقت الرّحيل،وأعلنت القطارات مواعيد السّفر والافتراق قبض كلّ منهم على جواز سفره الذي يكرّس غربته،ويرسم أحزانه على شكل جنسيّة ما حصل عليها في آخر رحلة التّطواف والتّشرّد والضّياع،تراهنوا على عدم البكاء حزناً على فراقهم الجديد،وابتسموا على مضض،وتصنّعوا اللامبالاة،واتّفقوا على أن يلتقوا ذات فرح في وطنهم فلسطين،وتعاهدوا على أن يفترقوا على ابتسامة وضحك،وتراهنوا على أن لا أحد منهم سوف يبكي لوعة الفراق وبرودة الغربة.

علت في المحطّة الباردة أصوات ضحكاتهم الفلسطينيّة المغرقة في لهجاتهم المحليّة

على الرّغم من دموعهم المتوارية خلفها بصعوبة.

كلّ منهم توّجه نحو قطاره الذي سيحمله من جديد نحو البعيد،لا أحد منهم نظر خلفه وهو يسير قدماً نحو مبتغاه القسريّ كي لا يكتشف الجميع أنّه قد بكى،وخسر الرّهان!

غداء

تحمل أخيها في كلّ ظهيرة تحت حرارة الغور السّالقة،وتسير إلى قلب مخيّم (الكرامة) كي تتناول وأخوها الصّغير طعام الغداء في مطعم وكالة(الأونروا) الذي يقدّم وجبة الغداء بشكل يوميٍ لكلّ من يحمل بطاقة استخدام للمطعم،والدها دبّر لها ولأخيها بطاقتين للأكل في المطعم بشكل يوميٍ،ولكنّه عجز عن تأمين بطاقة ثالثة لأمّها.

تخبئ تحت ملابسها كيساً بلاستيكيّاً شفّافاً،تسكب فيه حصّتها من الطّعام لتعود بها إلى أمّها،فتشتركان في وجبة غداء واحدة،وتنامان دون عشاء في حين تدّخر لأخيها الصّغير نصف برتقالة تُصرف لكلّ طفل صغير مع وجبة غدائه،فتمنعه من أكلها في الغداء لتكون وجبة عشائه.

حملت وجبة طعامها ووجبة طعام أخيها،فانزلقت الوجبتان من يديها،وانسكبتا على الأرض،وتدحرجت نصف حبّة البرتقال نحو البعيد متعفّرة بالتّراب وروث الدّواب.

رجت المسؤولة عن مطعم الوكالة أن تعطيها وجبة واحدة أخرى بدل عن الوجبتين المنسكبتين منها،ولكنّ المسؤولة رفضتْ ذلك رفضاً قاطعاً،ونهرتها بشدّة،وأمرتها بأن تنتظر إلى اليوم التالي كي تنال وجبتي غداء جديدتين.

حملت أخاها بحزن وندم على ما هدرتْ من طعام،وغادرت مطعم الوكالة كسيفة الخاطر،وظلّت طوال طريق العودة إلى البيت تفكّر بأمّها التي تنتظرها جوعى أمام بوابة البيت لتأخذ حصتها من الغداء.

ولادة متعسّرة

اعتادت الولادات المتعسّرة،ولكن ذلك لم يثنها عن إنجاب ثلاثة عشر ابناً وابنة.هذه ولادتها الرّابعة عشرة،هي الأصعب،وهي من تقدّم بها العمر،ولاكتها السّنون والهموم.

زجرتها الممرّضات وهن يرمقن ثوبها الفلسطينيّ القديم الذي يجهر بأنّها قادمة من البعيد،ولا تنتمي لهنّ،طالبنها بكتم صراخ ألمها الذي يتفتّق عن خروج جنينها من جسدها،قالتْ إحداهنّ:»اخرسي،ولا تصرخي أكثر.لقد أزعجت الجميع بصوتكِ.من تظّنين أنّك ستلدين؟!»

ردّت الفلسطينيّة بفخر وهي تكزّ على شفتيها،وتبلع ريقها،وتدفع كلماتها بصعوبة خارج نفسها الموجوعة:»سألد فدائيّ فلسطينيّ يا بنت الكلب».

موت

جدّته لأبيه حيّرته دائماً بشخصيتها المتذمّرة من كلّ شيء،لم يعجبها في يوم طعام أو شراب أو ماء أو هواء أو لباس أو معشر أو منظر أو بشر في مهاجرها التي ساطت غربتها،وكوتْ نفسها ضياعاً ومعاناة ووحدة وقلقاً،وظلّت تقول جملتها الشّهيرة:»كلّ شيء في فلسطين أجمل».

عندما مرضتْ أقسمت على أبنائها وحفدتها وأنسبائها أن ينقلوها لتموت في فلسطين قائلة:»الموت في فلسطين أجمل».

وعندما خاضتْ باستسلام سكرات الموت أوصت الجميع بأن يدفنوها في أرض فلسطين قائلة بثقة من رأى اليقين في لحظات النّزع:»الأرض في فلسطين أحنّ على أجساد أهلها».

قلادة

كلّ ما تملك من وطنها هو هذه القلادة المعدنيّة على شكل خارطة فلسطين معلّقة في

رقبتها بخيط قنّب،تحرص على أن تخرج هذه القلادة من عنق سترتها كي لا تختفي في صدرها عن الأعين التي تتفاخر أمامها بفلسطينيّتها.

سكنتْ مع أسرتها منذ وقت قريب في هذا الحيّ في ولاية أمريكيّة نائية بعد أن جاءت مع أسرتها للعيش هنا مع النّاجين من عمليات الإبادة الجماعيّة للفلسطينيين في مخيّمها،والتحقتْ حديثاً بهذه المدرسة الابتدائيّة الجميلة القابعة في غابة خضراء صغيرة،أجلستها المعلّمة بالقرب من تلك الشّقراء الصّغيرة التي تعلّقتْ عينيها بالقلادة المعدنيّة التي خطفتْ إعجابها بلونها القديم المشبّع بالخضرة المسودّة،استهدتْ القلادة من الطّفلة الفلسطينيّة التي سخرتْ من هذا الاستهداء بابتسامة ميّتة،وقالتْ لها بحزم وإصرار:»لا أهدي فلسطين لأيّ أحد».

مطار

التقيا في صالة الانتظار في المطار،صمّم الصّهيونيّ الذي يلبس لوناً أسود يماثل لون داخله،ويهزّ جدائله ذات الرّائحة المتعفّنة على أن يدسّ رأسه بالكتاب الذي يقرؤه الرّجل الذي جلس صدفة إلى يمينه.

من السّهل على جاره في المقعد أن يدرك أنّه صهيونيّ من ملبسه وطاقيته وجدائل شعره وترانيمه التي تشبه نقر طائر الخشب في جذع شجرة،ورائحته صنانه هي برهان يقطع الشّك باليقين على أنّه صهيونيّ.في حين صعب على الصّهيونيّ المسافر أن يخمّن أن جاره هو فلسطينيّ مهجّر.

في محاولة فاشلة من الصّهيونيّ لاستدراج جاره لأيّ حديث كان لقتل الوقت سأله بالإنجليزيّة التي خمّن أنّه قد تكون لغته:»أنا إسرائيليّ،وأنا في طريق عودتي إلى موطني إسرائيل.إلى أين تسافر أنت؟»

أجابه الرّجل بتقزّز: «إلى بولندا».

سأل الصّهيونيّ باهتمام مزوّر: «أهي وطنكَ؟!»

أجابه الفلسطيني بتقزّز: «بل وطنكَ أنتَ. أمّا وطني فهي فلسطين».

قرش

خرج مُهجّراً قهراً من فلسطين، لا يملك شيئاً إلاّ قرشاً فلسطينيّاً مثقوباً كان يدسّه في جيبه مفتخراً به منذ أن أهداه له عمّه الشّهيد في ثورة الفدائيين ضدّ الانتداب البريطانيّ في عام ١٩٣٦، كلّ ما آل إليه من وطنه هو قرش مثقوب منسي في جيب ثوبه الوحيد الذي خرج به بعد أن خسر أهله وبيته وأصدقاءه وعالمه كلّه، كما خسر الكتّاب الذي يدرس فيه والمصحف الشّريف المذهّب النّادر الذي أحضره عمّه له هديّة من الأراضي الحجازيّة عندما ذهب إلى الحجّ.

الآن لم يعد يملك شيئاً، فزهد بعقله الذي يذكّره بمأساته، عقد القرش الفلسطينيّ الوحيد الذي يملكه بخيط صوف أحمر اللّون وجده متروكاً مهملاً في الأرض، وعلّقه في رقبته، وانخرط يلاحق عوالمه الماضية الرّاحلة عنه في أحلام يقظة يطاردها ليل نهار في المهجر الذي دُفع إليه مع غيره من المدفوعين إليه من الفلسطينيين. وكلّما استوقفه أحدهم مشفقاً على خبله داسّاً في يده بعض المال كي يستعين به على كربه وشطحاته وجنونه المقيم يقفل كفّ يده بقوّة وإصرار، ويرفض أن تستلقي فيها أيّ نقود غريبة، ويقول لمن يتصدّق عليه رأفة به وإشفاقاً على حاله: «أريد قرشاً فلسطينيّاً».

بُقجة[1]

هي من أرسلتْ له هذه البقجة مع أخيها الأصغر، لا بدّ أنّه خاطر بنفسه ليوصلها إليه قبل أن تقلع السّفينة، وتحمله ورفاقه بعيداً عن لبنان ليكون أبعد عن فلسطينه، يمسك البقجة، ويضعها أرضاً متشائماً منها؛ فلطالما كره البقج؛ فأمّه هُجرت عن وطنها بواحدة مثلها، وطفولته اكتستْ من بقج الإعانات التي ما أفرحته يوماً ببنطال جديد أو قميص

١- صرّة ثياب أو نحوها.

يناسبه أو منامة دون ثقوب،البقجة كسرت خاطره كثيراً في طفولته،وأبكته مراراً على عيد يداهم طفولته دون ملابس جديدة،وها هي الآن تكسر خاطره عندما تكون آخر عهده بمن يحبّها،لا يسأل نفسه ماذا وضعت(رباب) فيها من ملابس وأشياء تخمّن أنّه قد يحتاجها،يرفعها من الأرض،ويقرّبها من أنفه،ويحاول أن يشمّ فيها عبق(رباب) دون أن تلمحه عيون الرّفاق المشغولة عنه بألم الفراق وقلق القادم ومتابعة الأفق المستلقي في أقصى البحر.

يقرّب البقجة من صدره،ويضمّها إليه لتنام(رباب) على صدره دون أن يعرف أنّها الآن وحدها دون حمايته تواجه الإبادة كما يواجهها أهالي مخيّم (صبرا وشاتيلا) بعد أن غادره الفدائيون الفلسطينيون مجبرين على ذلك،يضمّها أكثر إلى صدره،ويحلم بـ(رباب).

٥

تقاسيم العرب

وحش

لا بدّ أنّ الجنديّ الصّهيونيّ ليس إنساناً،بل وحشاً كاسراً كي يقوى قلبه على قتل الأبرياء،وتهجيرهم،وسرقة فلسطينهم.لم يرَ في حياته جنديّاً صهيونيّاً،فقد وُلد في مخيّم (الكرامة) خارج وطنه،ولكنّه يعلم من والديه أنّ الوحوش الصّهيونيّة تعسكر هناك غربيّ النّهر.

لقد تبعتهم الوحوش المطاردة إلى مخيّم (الكرامة) محصّنّة بدبّابات عملاقة وآليّات مدمّرة لتقضي على الفدائيين،سريعاً ما انهزموا شرّ هزيمة على يد المتصدّين لهم،ووقعوا في الأسر،سُمح له ولأطفال المخيّم الفضوليين الذي حاصروا الدّبابات الصّهيونيّة المأسورة بأن يطلّوا على الوحوش المحاصرة فيها.

كان أوّل من أطل من فوّهة الدبّابة ليلقي نظرة على من يقبع فيها،رأى جنديّاً صهيونيّاً مكبّلاً بالسّلاسل مثبّتاً في قاع الدبّابة لا يستطيع الحراك.أخبره الأبطال المنتصرون أنّ العدوّ الصّهيونيّ أرسل جنوده إلى حرب (الكرامة) مكبّلين بالسّلاسل كي يضمن أن لا يهربوا من ساحة المعركة لشدّة جبنهم.

تفاجأ بأنّ الجنديّ الصّهيونيّ هو رجل لا وحش كما كان يعتقد،ابتسم البطل المنتصر،وقال له: «لا،هو ليس وحشاً،هو مجرّد كلب جبان مقيّد بالسّلاسل».

دعم

قرّروا أن يدعموا القضيّة الفلسطينيّة دعماً قويّاً يشدّ من أزرها،أسّسوا منظمة عربيّة إسلاميّة عالميّة لذلك،جمعوا لها المال العرمرم،ووزّعوا المناصب الفخريّة والإداريّة وفق مبالغ المال المقدّمة من بلادهم ومؤسّساتهم،وعدوا الجماهير التّائقة للحريّة والكرامة العربيّة بأن يكون لهم إجراء داعم ومؤثّر وسريع،وأمّلوا الشّعب الفلسطينيّ في الأراضي المحتلّة والشّتات بحلول جذريّة لمعاناتهم،وبقرار واحد جريء منتظر مأمول قرّروا أن

يستأجروا قرية سياحيّة في جزيرة نائية لتكون لهم فيها خلوة لمدّة غير محدودة كي يفكّروا بهدوء بما عليهم أن يفعلوه في سبيل تحقيق وعودهم،ورصدوا ميزانيّة عملاقة من التّبرعات العربيّة لمنظّمتهم كي يرفّهوا عن أنفسهم بالنّساء والخمر والملذّات كي تتفتّق ذواتهم المظلمة عن فكرة منيرة لدعم الفلسطينيين،وطال اجتماعهم،وطال انتظار الفلسطينيين لحلّ لا يأتي.

دماء

هناك على سطح الأرض يتناحرون عرباً تحت مسميّات فلسطيني،وغير فلسطيني،لا تعنيه هذه الحرب،يغلق على نفسه باب القبو،ويعتزل هناك بعيداً عن حمّام الدّم الرّهيب،فهو يعلم أنّ مؤامرة تقتيل الفلسطينيين هي جزء من مؤامرة إبادتهم وإقامة دولة كبرى للكيان الصّهيوني.

لا يريد أن يتورّط في هذه المهزلة،يضرب صفحاً دون الخوض في هذه المؤامرة،يهرب من فريقه الذي لا يفهم لِمَ يحارب،ويأخذ بيد صديقه الفلسطيني، وينعزلان في القبو،هناك يتذكّران أيّام الطّفولة،ويتصفّحان صور اللّهو والبراءة،ويتركان العالم في الخارج يتناحر في دروب جهنّم.

منهاج جديد

يوبّخها والدها بشدّة كما يوبّخ سائر إخوتها إن لم تحصّل العلامة النّهائيّة الكاملة في المواد التي تدرسها في مدرسة(الأونروا)التي يدرسون فيها بالمجّان؛ويكرّر على مسامعهم دون كلل أو ملل:»ليس للفلسطينيين ثروة سوى العلم،إيّاكم والجهل، عليكم جميعاً أن تواصلوا دراساتكم العلميّة حتى لو بعت ملابسي وملابسكم لأجل ذلك».

منهاج جديد قد أصدرته الدّولة العربيّة التي يدرسون فيها،فرحوا لأنّهم سيحصلون جميعهم في الصّف على كتب جديدة غير مستعملة بخلاف ما ألفوا الحصول عليه من

كتب مستعملة مهترئة.

حصلتْ على كتابي تاريخ وجغرافيا جديدين،تفوح منهما رائحة الورق الجديد الذي لم تعبث به الأيدي الآدميّة،في كتاب الجغرافيا بحثت عن خارطة فلسطين،فوجدتْ اسم إسرائيل يتربّع في وسطها،وفي مادة التّاريخ وجدت اسم إسرائيل كدولة من دول الجوار.

أطبقت الكتابين دون اهتمام بأن يتمزّقا،وما عادت تبالي بأن تأخذ أصفاراً في مادتي الجغرافيا والتّاريخ لأنّهما مادتان خائنتان.

صهاينة

منذ كانتْ صغيرة علّمها أهلها أنّ اليهود الصّهاينة هم من اغتصبوا وطنها فلسطين،وطردوها وشعبها منه.كبرتْ وفلسطين معلّقة في صدرها عشقاً،وفي رقبتها خريطة من المعدن لا تفارقها أبداً.

ذلك الجنديّ العربيّ هو أوّل من قطع قلادتها الفلسطينيّة في مسيرة احتجاجيّة على استمرار الاحتلال الصّهيونيّ لفلسطين،وألقى بها على الأرض،وداسها بحذائه العسكريّ الغليظ،وقال لها:»الصّهاينة أحسن منكم! ما الذي أتى بكم إلينا؟»

بكت أيّاماً طويلة في طفولتها تأثّراً من هذا الموقف المخيّب للآمال.لكنّها عندما كبرتْ اكتشفت أنّ هذا الموقف هو الأقل إيلاماً إذ قورن بتهجيرها وأهلها من موطنها إلى بلد آخر،واضطهادهم خبط عشواء مرّة تلو الأخرى لأنّهم كما تقول جدّتها:»حمّالين الأسى والإساءة».

اليوم طردها صاحب البيت وأهلها من بيتهم القنّ الذي يستأجرونه منذ عقدين من الزّمان في خضم الانفلات الأمنيّ وتغيير مراكز السّلطة في هذه البلد العربيّ الذي يعيشون فيه؛فقد طمع صاحب البيت في المزيد من المال إذا ما ألقى بهم في الشّارع،وأجّر البيت لمن يدفع أكثر منهم.وقد غنم من هذا الانقلاب عليهم أثاثهم وملابسهم وكلّ ما يملكون بعد أن طردهم من بيتهم عراة حفاة خالي الوفاض،وما وجدوا أحداً ينتصر لهم.

من جديد وجدوا أنفسهم أسرة فلسطينيّة في مهبّ الضّياع.التفتتْ إلى أمّها التي عضّها الحزن حتى نخر صبرها،وقالتْ لها معاتبة:»لقد قلتِ لي أن الصّهاينة موجودين في فلسطين فقط!»

ردّت الأم وهي تجرّ جسدها وزوجها العجوز:»إنّهم هنا أيضاً».

شرف

«العربيّ شريف لا يُضام،ولا يقبل أن يُهان»،كتبت معلّمة محو الأميّة على السّبورة،استدارت لتقابل وجوه نساء المخيّم اللّواتي أتين لمحو أميتهن،قرأت الجملة على مسامع الطّالبات أكثر من مرّة،وسألتْ:»من تقرأها لي من جديد؟»

سرتْ همهمة في الصّف،ثم زمزمة،ثم علت ضحكاتْ تقرقر مثل تداعي قربة ماء على الأرض،سألت المعلّمة صغيرة السّن على استحياء وبحرج بادٍ:»هل قلتُ شيئاً يدعو للضّحك؟!

أجابت أمّ محمود زعيمة نساء الصّف:»هذا كان زمان،والله جبر.انظري إلى حالنا الآن.أين العرب ممّا يحدث؟»

أضافت امرأة أخرى باستهزاء: «العرب الشّرفاء موجودون فقط على السّبّورة».

عروبة

مطّ النّري العربيّ كرشه الذي يتدلّى ليهرس عضوه التّناسليّ القزم الذي أغدق عليه دون انقطاع بالجواري والحسان اللواتي ما استطعن لكسره جبراً،ولا لعطبه دواء.

يحبّ أن يظهر مبتسماً في الصّحف،وهو يفيض بماله صداقات وعطايا على الغرباء المنكوبين والحيوانات الآيلة للانقراض والمباني الأثريّة في مجاهل بلاد العالم والنّساء الجميلات التي يستدرجهنّ إلى قصر حريمه.

يحبّ لقب المحسن العربيّ،ويكثر من التّزيّن بالدّمقس والحرير والمعصفر والمفضّض

والمذهب والمألمس من فاخر الثّياب ونادر الأحذية ونفيس الجلود والفراء.

لقد تبرّع بالمال للدّاني والقاصي،وظهرتْ صوره في استعراضات صدقاته في صحف عالميّة لا يجيد أن يقرأ كلمة من كلمات أخبارها بسبب جهله بلغاتها فضلاً عن جهله بلغته.

زعم في لقاء صحفي أنّ معاناة الشّعب الفلسطيني قد أحرقتْ قلبه الملبّد بالدّهون،وحرص على أن تبرز الوسائل الإعلاميّة دموعه الثّرة التي أهداها بسخاء للشّعب الفلسطيني،وفرض على نفسه عمرة للدّعاء لهم،وعند الكعبة سأل الله إلحافاً أن يعينهم،وأن يهبهم من يكون في عونهم،ومطّ شفتيه طويلاً بالدّعاء لهم إلى حين تلتقط عدسات كاميرات التّصوير صورة مناسبة له تسجّل دعمه المؤزّر للقضيّة الفلسطينيّة!

جنديّ

قبّلته أمّه،وقالتْ له على رؤوس الأشهاد من أسرته وأقاربه: «إيّاك أن تعود إلى البيت قبل أن تحرّروا فلسطين.لن أرضى عنك إنْ لم تفعل ذلك».

لقد تجنّد في هذه الجيش منذ سنتين،لكن هذا التّحرير هو مهمّته المقدّسة،يشعر بفخر عظيم لأنّه ضمن جيش عربيّ كبير جاء ليشارك في تحرير فلسطين من عصابات صهيونيّة استولت على جزء كبير منها.

بدأت الحرب مع شرذمة من الصّهاينة،يستطيعون أن يبيدوهم جميعاً مع غروب شمس هذا اليوم إن اجتهدوا بإخلاص لذلك،إلاّ أنّ أمراً بالانسحاب يأتيهم من قيادتهم هناك في العاصمة العربيّة،يتعجّب من هذا الأمر الذي جاء في قمّة انتصارهم،ينسحب الجيش الذي يأويه كاملاً،ولكّنه يرفض أن ينسحب،ينطلق وحده عكس درب جيش الجباه المحنية والعيون المكسورة والبنادق الخاذلة،ويقرّر أن يقاتل العصابات الصّهيونيّة وحده.

مظاهرة

كان المخيّم الفلسطيني(صبرا شاتيلا) يُذبح من الوريد إلى الوريد على أيدي مجرمي العرب والصّهاينة،استنجد المخيّم بأبنائه الفدائيين،فلم يجد ملبّين منهم إلاّ القليل ممّن ظلّوا بعد رحيل الجميع،بذلوا أرواحهم رخيصة للدّفاع عنه،في حين كان البحر يحوش باقي الفدائيين الفلسطينيين،ويسرقهم نحو منافيه الجديدة بعيداً عن أهاليهم وذكرياتهم وأحلامهم وقبور رفاقهم في درب المقاومة.

أمّا العرب فكانوا جميعاً يقومون بدور من أدوارهم التّاريخيّة الحاسمة،إذ كانوا يتابعون بإخلاص واهتمام تصفيات العالم في كرة القدم،ويعدّون الأهداف،ويتحيّزون لخاسر أو فائز وفق أهوائهم.

في الصّباح كان مخيّم(صبرا وشاتيلا) نهراً من الدّم الفلسطيني،وكان العرب الأشاوس في كلّ شبر في الوطن العربيّ قد هبّوا هبّة واحدة جريئة غاضبة في مظاهرات مليونيّة دعماً لفريق كرويّ عربيّ قد خسر،وآخر قد ربح،ولم يتذكّروا قتلى المخيّم التّعس بمظاهرة واحدة من مظاهراتهم التّاريخيّة المدوّية! فنام المخيّم على حزنه،ولم يستيقظ!

لطيم

هي عاقر،رحمها أجدب لا يستجيب لهاجسها بأن تصبح أغنى النّساء لا أمّاً راعية حانية،هي تريد طفلاً كي تتبّاه،فتحرق ماضيه كاملاً،وتتسبه لنفسها وزوجها كي يكون الوارث لثروته،فيؤول المال كلّه إليها بدل أن يذهب لأقارب زوجها بعد موته.

وأخيراً وجدت مبتغاها في أيتام المخيّمات الفلسطينيّة في لبنان الذين هلك عنهم أهلوهم،وتركوهم أيتاماً لا شفيق عليهم،ولا رحيم بهم،حصلتْ بسهولة على طفل لطيم منهم دون أيّ شروط للتّبني،اختارته على هواها أشقر مسدل الشّعر ذهبيّ البشرة أخضر العينين،انتزعته من بين أخيته،ورفضت أن تتبنّاهما معه،إذ هي في حاجة إلى طفل ذكر يرث ثروة زوجها،وليستْ باحثة عن أجر أو إحسان أو ممارسة أمومة.

أخذته إلى بيتها يبكي بحرقة أختيه اللّتين أُنتزع منهما،وأعلنتْ أنّه ابنها،وغيّرتْ

اسمه، ومنعته من أن يتذكّر المخيّم وأهله وأختيه. بعد مدّة قصيرة نسي أنّه فلسطيني، وتاه في الزّحام بفضل العربيّة المحسنة التي تبنّته، وبترته عن أصله!

٦

تقاسيم العدوّ

زوجة سارق

منذ أن بدأت تراقب تلك الفلسطينيّة التي تعيش في كوخ صفيحيّ في أرضها،وهي ترى العالم من زاوية أخرى،إدارة الكيان الصّهيونيّ أقطعت زوجها هذه الأرض،بعد أن صادرتها من عائلة تلك المرأة الفلسطينيّة التي صمّمت على أن تظلّ في مزق صغيرة من أرضها في كوخ صفيحيّ صغير.

قبل أن تجاور هذه المرأة الفلسطينيّة كانت تعتقد أنّها زوجة سعيدة تعيش مع زوج مثاليّ في أرض الميعاد،ولكن عندما راقبتْ حياة هذه المرأة الفلسطينيّة اكتشفت أنّهم مجرّد لصوص رعاع قد سرقوا أرضاً من أهلها،وأنّها ليست أكثر من زوجة مخدوعة تعيش مع عسكريّ عربيد يغتصب الأسيرات الفلسطينيّات في المعتقل في النّهار،ويعربد مع العاهرات في اللّيل،ويتركها خادمة حبيسة البيت.

هي متعاطفة مع تلك الفلسطينيّة،هذه الأرض هي حقّها الشّرعيّ،تطلب من زوجها أن يردّ الأرض التي سرقاها إلى صاحبتها الفلسطينيّة،وأن يستقيل من عمله،وإن يعودا إلى فرنسا ليعيشان هناك في موطنهما الأصلي،لكنّه يرفض ذلك،ويواجهها بعاصفة من الغضب بعد أن يضربها ضرباً مبرّحاً.

تقرّر أن تنفّذ رغبتها رغم أنفه،تُعدّ له الفطر المشروم الذي يحبّه،تختاره بعناية من النّوع السّام،تطهوه له،وتقدّمه له مساء على العشاء اعتذاراً له عمّا صدر منها في حقّه في الصّبح،وتأكل معه ليواجها معاً الموت الذي يستحقّه كلّ لص.

صمت

كانت هزيمة نكراء لهم أمام الفدائيين الفلسطينيين،لقد تجرّع مع زملائه المجنديّن معنى الخوف والموت والهزيمة،كانوا في كلّ مكان،لم يكونوا بشراً،بل أشباح طاردتهم،وقتلتهم،ودمّرت ذخيرتهم،لم ينجُ من تلك المصيدة الإبليسيّة سواه وبعض من

الجنود الجرحى.

أمضى شهراً في العلاج النّفسي كي تسمح إدارة الجيش الصّهيوني لأسرته بمقابلته بعد أن لقّنوه الكثير من الأكاذيب عن نصر كاسح لم يحدث إلاّ في خيال الكاذبين الذين أجبروه على ترديد هرفهم كي لا يعرف الصّهاينة أنّهم مهزومون حتى النّخاع.

قرّر أن لا يردّد أيّ كلمة من هذه الأكاذيب، وحرّم الكلام على نفسه، وتظاهر بالخرس، ولزم الصّمت إلى الأبد.

أغنية عربيّة

بسريّة تامّة تداعب وجدانها وأحلامها بسماع الأغاني العربيّة ذات اللّهجة المصريّة، فمن الممنوع عليها أن تظهر تعاطفاً وحبّاً لأيّ شيء عربي، ولو كان أغنية.

جاءت إلى هنا بخدعة اسمها أرض الميعاد، وعندما علقت في شباكها أدركت أنّ الأرملة السّوداء الصّهيونيّة ستأكلها لأنّها يهوديّة شرقيّة كما يسمّونها.

أمثالها كثر من اليهود الشّرقيين الذين جاءوا مخدوعين إلى هذه الأرض راكضين وراء وهم كبير، ليست يهوديّة شرقيّة، هي يهوديّة مخدوعة تركتْ أهلها في مصر كما ترك غيرها أهله في المغرب واليمن والعراق، وجاءوا ليُحرقوا جميعاً في هذا المكان.

هناك من حيث جاءتْ لم يكونوا يعيّرونها بلقب اليهوديّة، لكن هنا في هذه المستوطنة الصّهيونيّة فهي تُعيّر بسبب أو دون سبب بأنّها شرقيّة قادمة من مصر، وتحصل على أدنى الاستحقاقات، في حين أنّ اليهود الغربي يحصل على الامتيازات كلّها.

لا تستطيع أن تعبّر عن غضبها من خديعتها، وعن ندمها النّاخز لأنّها تركتْ شاطئ الإسكندرية حيث المرح والحبّ والجيران والصّحبة الحلوة، وجاءت لتُخزّن حتى تموت في صندوق معدني في مستدمرة معزولة في أعلى صلد الجبال.

هي تنتقم كلّ يوم ممّن أتى بها إلى هنا بأن تسمع سرّاً الأغاني العربيّة المصريّة، وتطرب لها، وتترنّم بكلماتها العربيّة بحبّ وفرح وتعلّق، وتحلم بقدميها يُغمران برمال شاطئ

الإسكندريّة بعيداً عن هذه المستدمرة الملعونة.

السّوط

يدرك من أعماقه كم هو مجرّد من الأخلاق والقيم والنّبل،ويلقّب نفسه باعتزاز في ساعات سكره بـ(المنحطّ).أمّا عندما يستيقظ فيهمس لنفسه بهذا اللّقب دون توقّف.

هو ابن زنا بشهادة كلّ من يعرفه،لا يعرف له أباً أو أمّاً على وجه التّحديد والجزم،لكن تلك المدرسة الدّينيّة الصّهيونيّة المتشدّدة في القدس هي من كفلته مذ لفظ والداه،وربّته حتى خرج وفق ما تشاء وتشتهي مجرّداً من الأخلاق والقيم والإنسانيّة،ينفّذ كلّ جريمة تُسند إليه بأعصاب باردة وضمير ميّت.

في أوقات العمل يمارس مهنته القميئة كفرد من أفراد قوات (النّحشون) التي تحترف تعذيب الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات ومراكز التّحقيق وغرف الإعدام.

يعجبه أن يبدأ وجبات التّعذيب بضرب الأسير الفلسطينيّ بالسّوط حتى يدمي ظهره ووجه وكتفيه وبطنه وفخذيه،ثم ينقضّ عليه مستغلاً تقيد يديه وقدميه كي ينتش لحمه بفكّه الثّعلبيّ.

أمّا في أوقات عطله الرّسميّة فيكتري بـ(شواكله) الكثيرة أشرس بنات اللّيل جسداً وطبعاً،ويطلب منها أن تقيّد رجليه ويديه،وأن تنهال عليه ضرباً بالسّوط ذاته الذي يضرب بها ضحاياه في المعتقل،حتى تهدّ صوته صراخاً واستغاثة دون مجيب.

هو لا ينام حتى تبصق إحدى بائعات الهوى في وجهه،وتتعته بـ (ابن الزّنا)،عندئذ يستريح، وينام إذ ينال ما يستحقّه من الاحتقار والتّعذيب.

ثوب

دفع لها الموساد الصّهيونيّ الكثير من المال كي تسخّر مهنتها كعارضة أزياء متقاعدة

وصاحبة أكبر دار أزياء في لندن لأجل أن تروّج لصورة المرأة الصّهيونيّة وهي تلبس الثّوب الفلسطيني، مهمتها أن تسرق هذا الثّوب من المرأة الفلسطينيّة، وأن تزرع في مخيال العالم وذاكرته أنّه من تراث الصّهاينة.

راق لها أن تكسب الكثير من المال الذي تعبده مقابل هذه المهمّة السّهلة، وإن لم يعجبها منظر الثّوب الفلسطيني الذي يستر الجسد، ويغلق أبواب الطّمع دونه، وهي من اعتادت على أن تكون بضاعة جسد رخيصة تسوّق الدّعارة في العالم كلّه، وتعرض جسد المرأة لكلّ مشترٍ.

لكنّها ما استطاعتْ أن تستمرّ في هذه الصّفقة؛ فهذه الأثواب الفلسطينيّة تصيبها بمرض عجيب، كلّما لبستها شعرت بأنّها فلسطينيّة، وسرتْ في جسدها قشعريرة الغضب على العدوّ الصّهيوني، وانتابتها حمى الهتاف بجملة (فلسطين حرّة)، وأحياناً تستبدّ بها هذه اللّعنة، فتلتقط حجارة الطّريق تلقمها لكلّ صهيوني تعرفه في لندن، أو تلتقيه صدفة أو بترتيب مسبق.

هذه اللّعنة طالت كلّ عارضة من عارضات الأزياء التي تعمل في دارها عندما لبستْ الثّوب الفلسطيني، لم تعد تطيق أن ترى الثّوب الفلسطيني أمامها.

أرسلت رسالة اعتذار عن مهمّتها لرئيسها الأعلى في الموساد، شرحتْ له فيها لعنة هذه الثّوب، وختمتها بقولها: «إنّه لهم، لا فائدة من سرقته، دعوه عنكم فإنّه لعنة علينا».

لصّ

هناك في إسبانيا سجنوه لأكثر من مرّة لأنّه لصّ يهوى سرقة المحافظ والحقائب النّسائيّة. عندما هاجر إلى أرض الميعاد الخديعة أصبح لصّاً برتبة جنديّ صهيوني يخدم كياناً لصّاً قد سرق وطناً كاملاً من أهله، كلّ عهدة ماليّة كانت في ذمّته اختلسها دون أدنى شعور بالذّنب، انكشف أمره سريعاً، فحوّل إلى محكمة عسكريّة قضت بسجنه خمس سنوات مع الأعمال الشّاقة وردّ ما سرقه من أموال عسكريّة، تفاجأ من هذا الحكم الجائر عليه

وفق رأيه،وقال للقاضي باستهتار وتحدٍ وغمزة ذات معنى:» لكم مالكم المسروق الذي سطوت عليه إن أعدتم فلسطين التي سرقتموها إلى أهلها،أُعيد نزير ما سرقتُ مقابل أن تعيدوا عظيم ما سرقتم».

بعد جلسة مداولة اسئنافيّة عاجلة ابتسم القاضي ابتسامة ذات معنى مريع،وحكم ببراءة الجنديّ اللّص!

رأفة

المذيع الصّهيونيّ كان يعرض في برنامج إعلاميّ يُبثّ بثّاً مشتركاً بين عدّة فضائيّات عالميّة تقريراً مصوّراً عن هدم بيت لذوي فدائيّ فلسطينيّ،المذيع أسماه مخرّباً لأنّه يدافع عن وطنه.

الجنود الصّهاينة في الفيلم حاصروا بيتاً فلسطينيّاً على رأس جرف صخريّ،لم يعطوا فرصّة لأهله كي يهربوا منه لولا أن أدركت أصوات الجرّافات أسماعهم لما خرجوا مسرعين حفاة مذعورين من طوابق البناء الأربعة،اندفعوا مثل سيل بشريّ خارجه،كانوا عائلة كبيرة،الكبير يتكئ على الشّاب،والصّغير يركض وراء أم أو أب يحمل أخاً أصغر منه وهم جميعاً يسابقون الزّمن كي لا يُدفنوا تحت ردم بيتهم،بعض النّسوة تعلّقن في طريق خروجهنّ بياقات بذلات بعض الجنود الصّهاينة ليدفعوهم بعيداً عن بيوتهنّ في محاولة أخيرة يائسة لإنقاذه،لكنّ سعيهنّ ذهب أدراج الرّيح والجرّافات تهمر مقتربة بسرعة ذئبيّة لتنشب أظافرها الفولاذيّة في جسد البيت.

فجأة تقترب (كاميرا) التّصوير من جنديّ صهيونيّ في المكان ينحني على عتبة البيت ليلتقط قطّة صهباء من أمامه.(الكاميرا)اقتربت من هذا المشهد حتى كاد يلتصق زجاج عدستها بيدي الجنديّ المشعوعرتين وهما تلتقطان القطّة،وترفعانها عن أرض العتبة.

رفع المذيع عقيرته مثمّناً رأفة الجنديّ الصّهيونيّ بالحيوان،وطالب العالم بأن يقف احتراماً لأخلاق الجنديّ الصّهيونيّ الذي يبعد حيواناً أليفاً عن مكان هدم بيت فلسطينيّ.

صوت تصفيق كادر (الاستوديو)علا بتصفيق مزلزل لهذه الرّأفة المزوّرة،العالم كلّه هدر بالتّصفيق والتّصفير لرحمة هذا الجنديّ الصّهيونيّ،وهتف سعادة لإنقاذ القطّ الأليف الذي نجا دون أهله، ولم يلمح في الفيلم المصوّر بيتاً فلسطينيّاً يُدفع بأسنان الجّرّافات ليتداعى في قاعة هاوية الجبل،ويترك أهله يندبونه،ويندبون تشرّدهم أمام عيون العالم الذي يتعاطف مع قطّ أصهب أكثر من تعاطفه مع شعب أسود الحياة.

خديعة

انتفض المستوطن الصّهيونيّ غاضباً مثل ديك ينتفش فوق مزبلة،وتهيّأ لينقر مسؤول المستوطنة بكلماته السّائبة من معدن نفسه الخسيسة الغاضبة.تجمّع حشد من المستوطنين حوله،خمّن مدير المستوطنة أنّهم متّفقون على موقف ما.

سأل المستوطن الدّيك:»أين هما العسل واللّبن اللذان هاجرنا إلى هنا من أجلهما؟! إنّنا لا نرى حولنا غير الموت والخراب والتّدمير والخوف».

عدّل مدير المستوطن طاقيّته الصّغيرة الهابطة فوق رأسه مثل براز طائر،وردّ بلا مبالاة وهو يشير بسبابته إلى الأعلى حيث السّماء:»العسل واللّبن ليسا هنا،بل هما هناك في الجنّة».

رجل

علّمها العمل العسكريّ في الجيش الصّهيونيّ أن تكون عاهرة بدرجة عسكريّة،فليس لها إلاّ أن تقبل بمضاجعة كلّ مسؤول عسكريّ يستهويه جسدها الممشوق،وشعرها الأحمر الطّويل السّائب،ومع مرور الوقت اعتادت على أن تبيع جسدها لكلّ من يدفع ثمنه امتيازات وهدايا وحفلات ورحل وترقياتٍ في العمل من منطلق أنّ جسدها أفضل سلعة تستطيع المتاجرة بها.

سعارها الجنسيّ وروحها الرّخيصة وإصابتها بمرض (الإيذر)جعلتْ قائد المعتقل

الصّهيوني ينفر من جسدها، ويهجره دون عودة، وينتدبها لتعذيب الأسرى الفلسطينيين بأعتى طرق التّعذيب الجنسي، وعندما تملّ من تعذيبهم تحقنهم ببعض دمائها المعلول لتنقل لهم مرضها لتحمّلهم عار المرض أمام الأهل والوطن قبل الموت بعذاب طويل.

لكن ذلك الأسير الفلسطيني المتديّن ذا الوجه الملائكي البشوش لم يستلم لها، وظلّ ينعتها بالعاهرة القبيحة، ورفض جسدها الرّخيص المهدور أمامه، ولم يتأوه للحظة في تعذيبها الجنسي له كي لا تقرّ نفساً بعذابه، ولا تشعر بانتصار بطشها على جسده، لقد ظلّ صامداً أمامها مثل جدار صلد أصمّ، فتّتت عضوه الذّكريّ بضربات الصّاعق الكهربائي، لكنّها لم تسمع منه استجداء لرحمته، زادتْ من ضربات الكهرباء كي تنتزع توسّلاته، فانتزعتْ روحه.

أغاظها أن يهرب إلى الأبد من بطشها وانتقامها، لقد هرب من جسدها الذي حقّره، ونفر من رائحة صنانه، بكتْ قهراً من صدّه لها، سألتها الجنديّة الصّهيونيّة شريكتها في تعذيبه عن سبب بكائها. أجابتها بيأس: »لقد رفضني، هو الرّجل الوحيد الذي رفض جسدي، هو الرّجل الحقيقي الذي قابلته في هذه الحياة، ولذلك قتلته«.

آر.بي.جي

من جديد يراهم أمامه أطفالاً فلسطينيين صغار بأجساد هزيلة يحملون مدافع (الآر.بي.جي)، جميعهم يملكون وجهاً واحد، كلّما قتل أحدهم بقذيفة أو خرّقه بعشرات الطّلقات رأى طفلاً بالوجه ذاته يهاجمه من جديد.

إنّهم في كلّ مكان ها هنا في هذا المخيم الفلسطيني في لبنان، لقد قيل لهم إنّها ستكون نزهة سريعة، يقضون فيها على الفلسطينيين في ساعة لاغير، ثم يعودون أدراجهم مكلّلين بورق الغار المسروق من جبال لبنان، لكن هذا لم يكن، بل هم من فرّوا من أمام الأطفال المقاتلين مهزومين مذعورين لا يلون على شيء وراءهم.

إنه يرى الوجه نفسه يحدّق فيه، العينان ذاتهما تواجهانه دون خوف، لا يفرّ الطّفل من

أمامه،بل يطلق قنبلة من مدفعيّته،فتفتك بزميل من زملائه الجنود الصّهاينة،ثم قبل أن يستطيع أن يفرّ بعيداً بمدفعيّة (الآ.ربي.جي) يعاجله بقذيفة من فوّهة الدّبابة التي يحتمي بها،فتناثر الفتى أشلاء وقطم لحم صغيرة.

إنّهم في كلّ مكان،الوجه ذاته يهاجمه في حلمه،يستيقظ مفزوعاً وقد تبوّل في فراشه،تنهره زوجته بقرف،وقد عامتْ في بوله،وتقول له:»عليك أن تراجع الطّبيب النّفسي من جديد».

يجيبها وعيناه تتربصان الوجه الطّفولي الكابوسي الذي يطارده في نومه ويقظته:»إنّه لا يستطيع أن يمنع ذلك الوجه الصّغير من أن يطاردني في كلّ مكان،لا توجد قوّة تستطيع أن تمنع هذا الوجه من مطاردتي،إنّه وجه يطاردني حتى يدفعني إلى الجحيم».

شارون

هو رقيق حسّاس الطّباع! يخدم وطنه المزعوم إسرائيل ولو داس على البشريّة جمعاء!هو يكره اللّون الأحمر لأنّه يكره رؤية الدّماء!ولذلك هو لا يمارس هوايته الآثمة،وهي قتل الفلسطينيين،إلاّ مغمض العينيين والرّوح كي لا يرى دم ضحاياه!

عَبْد

جاء من أثيوبيا راكضاً خلف أطماع وأوهام،زعم أنّه يهودي كي يظفر بحياة رغيدة كما وعده الحاخام الصّهيوني الذي حزمه وأهله والكثيرين من أهل مدينته الأثيوبيّة،وأطلقهم كقطيع أجرب في مستدمرة صهيونيّة يعزّ فيها الأمن والرّاحة والمعاملة الإنسانيّة الرّاقية.

عامله أبناء جلدته من الصّهاينة معاملة عبد آبق من سيده،كلّ ما وهبوا له على كره واحتقار هو بعض الطّعام وصندوق إسمنيتي ليعيش فيه مع أسرته ومكنسة حقيرة يكنس فيها المؤسّسة التي عيّنوه خادماً فيها.الآن هو عبد حقيقي،عبد من يهود (الفلاشا)،يسخر منه اليهود البيض لأنّه أسود اللّون والحظّ.

هو يتوق للحريّة،يقرّر أن يستعيد ذاته المسروقة،يحزم أبناءه بسريّة،ويعود إلى وطنه الحقيقي،ويبتعد عن فلسطين التي لا وطن له فيها،عندما يهبط وزوجته وأسرته على ثرى أثيوبيا يعود حرّاً من جديد.

كتاب

كتابه «التّطهير العرقي في فلسطين» هو أقدس ما أنجزت نفسه،يتأبّطه باعتزاز وحرص وإجلال،ويهرب على عجل وحذر من عنصريين صهاينة يرجمونه بسبّة الخيانة،ويرشقونه ببصاقهم،ويجلدونه بقولهم:»إيلان بابيه يا خائن،ياعميل العرب».

لا يبالي بما يكابد،فأخيراً كتب قلمه الجريء الحقيقة كاملة وبإنصاف كامل بعد أن أدرك وحشيّة شعبه.أخيراً يستطيع أن يعيش بسلام،وأن يموت برضا؛فقد كتب الحقيقة التي أراد شعبه أن يطعمها للنّسيان.

متحف

الحاخام الصّهيونيّ كان يتجوّل في متحف الإنسان في باريس،ويسمع استعراض طالبه للأمم والأقوام التي انقرضت عن بكرة أبيها بهجمات إبادة وحشيّة من أعدائها المحتلّين،فيهزّ رأسه ابتهاجاً كلّما وقف أمام استعراض لأمّة منقرضة علي يدي محتلّ آثم.

الحاخام في نهاية الجولة انزوى جانباً في آخر العرض،وأخذ ينهق باكياً بحسرة خنزير يندب طعاماً في مزبلة لا يستطيع الدّخول إليها،سأله طالبه الخجول بقلق وارتباك عمّا يبكيه،أجاب الحاخام وهو يمسح مخاطه بكمّه:»إنّهم الفلسطينيون،لقد أحرجونا أمام العالم والتّاريخ عندما رفضوا أن نبيدهم،فنرتاح منهم،ويدخلوا هذا المتحف للعرض لا غير».

هواية

هوايته الصّهيونيّة الفضلى هي أن يرى رؤوس الأطفال الفلسطينيين تتدحرج بسرعة بعيداً عن أجسادها.يمارس هوايته في المخيمات الفلسطينيّة جميعها،يجد لذّة خاصّة في مطاردة الرّؤوس الرّاكضة قهراً بعيداً عن أجسادها في مخيم (صبرا وشاتيلا)، يتلذّذ طويلاً بالرؤوس العربيّة الصّغيرة الذّبيحة في مدرستي (بحر البقر) و(قانا).

وعندما تلتهب هوايته،وتسيط روحه بعطش حارق يدنو من رأس ابنه،ويهوي عليه بساطوره،فيدحرجه بعيداً عن جسده،ويشرع يراقب نافورة الدّم الصّهيوني الدّبق النّجس وهي تتعالى متقاذفة في فضاء سرير ابنه.

يضحك بشرٍ ورضا وامتداد،ولكنّه لا يزال في عطش محموم متأجّج لاصطياد رأس طفل فلسطيني!

وسام

نال وسام البطولة في الجيش الصّهيوني من الدّرجة الثّالثة تقديراً لدوره المهم في إبادة مدرسة أطفال فلسطينيّة عن بكرة أبيها.

لقّبوه ببطل،أطلقوا اسمه على بعض المواليد الجدد،نشرتْ الصّحف الصّهيونيّة صورته بوصفه بطلاً وطنيّاً.

سرعان ما نسيه المحتفلون، وهجرته الصّحف،وأدار الإعلام ظهره له،وصدئ وسامه في درج من أدراج مكتبه،وظلتّ وجوه الأطفال الفلسطينيين الذين قتلهم بصاروخ جويّ واحد تطارده ليل نهار،وتنشب أظافرها في تلابيب روحه التي تعيش في جحيم أرضي لا ينقضي.

خُرافة

بعد أن اجتاز الدّورة المكثّفة،التي خاضها جبراً بتكليف من إدارة جيشه،صدّق أنّه جنديّ في جيش أسطوريّ لا يُهزم،لقد غذّته الدّورة بخرافة الشّعب المختار والجيش الذي لا يُقهر.الآن هو مستعدّ للخروج في أيّ مهمّة يُكلّف بها لأجل أن يسحق العرب أجمعين بل العالم كلّه مادام هو جنديّ في هذا الجيش الأسطوريّ.

مهمّته الأولى كانت سحق الفدائيين الفلسطينيين في لبنان،شرب ليلة التّكليف بمهمته الكثير من الخمر،وضاجع مراراً عاهرة صهيونيّة منخرطة معهم في العمل في الجيش،فلا بأس من تبديد طاقاته،فهولا يحتاجها في هذه المعركة النّزهة،فهي لن تستغرق منه الكثير من الوقت قبل أن يحصد النّصر،ويبيد الفلسطينيين،ويعود إلى وكره ليكمل عربدته.

أخيراً خرج في نزهته الحربيّة الموعودة،لم يقابل أيّ رجل فدائيٍ كان،فقد تصدّى له ولجيشه الفدائيون الصّغار الذي رأوا أنّه وجيشه أحقر من أن يستدعي أن يخرج الكبار لهم،أمطروا الموت عليه وعلى مجموعته عبر قذائف(الآر.بي.جي)،في ساعات قليلة غدا جنديّاً أسيراً في أيدي صغار جبابرة،لم يقتلوه كما تخيّل،بل عرّوه من بنطاله ومن ملابسه الدّاخليّة،ولمزوه بأسلحتهم،فأطلق قدميه للرّيح التي تسخر من عريّه،وطار في درب الهروب لعلّه يعود حيّاً إلى أولئك الخادعين الذين أقنعوه بأنّه جنديّ في جيش أسطوريّ لا يقهر كي يبصق في وجوههم.

نسيان

قالوا له قبل أكثر من نصف قرن وهم يعلّمونه مبادئ الصّهيونيّة :»إنّ الكبار الفلسطينيين سيموتون،وأنّ صغارهم سينسون».

كان يستعرض الوجوه الفلسطينيّة الصّغيرة وهو يأمر بدسّها في المعتقل عقاباً لها على رجم الجنود الصّهاينة بالحجارة،أمر بتغليظ العذاب لهم،شتمهم،وشتم من أنجبهم،وبصق

في وجوههم حتى جفّ ريقه،وكاد يختنق بجفافه،صفق الباب في إثر خروجهم وهم يُساقون بالسّلاسل إلى العذاب والجحيم معصوبي الأعين،بات يترنّم على صوت استغاثاتهم تزلزل السّماء،فرح بعذاباتهم،تشمّت بهم،ثم أخذ يشخر وهو يبكي بقهر،وهو يبتلع دموعه السّخيّة،وهو يقول:»إنّهم لا ينسون».

نبتة عطريّة

هي تسكن الطّابق الثّاني من بيت مقدسيّ أثريّ انتزعه الاحتلال الصّهيونيّ من أهله،وملّكوه لها ولزوجها ولابنتها،كان من المفروض أن تمارس كلّ ما يتقّتق ذهنها عنه من شرور وإيذاء لتزعج العائلة المقدسيّة التي تسكن الطّابق التّحتي،وتجبرها على الرّحيل،ولكنّها كانت تعجز عن ذلك بسبب طبيعتها النّفسيّة الخيّرة التي يكرهها زوجها وأهله،فيحثّونها دون انقطاع على أن تتخلّى عن شمائلها الطّيّبة لصالح مطامعهم وولائهم لكيانهم الصّهيونيّ.

وضعت يديها على حوض نبتة عطريّة لصاحبة البيت ضمن ما سطتْ عليه من أثاث وملابس في الطّابق الثّاني من البيت المقدس المغتال،أحبّت هذه النّبتة العطريّة التي لها رائحة فوّاحة طيّبة حنونة،لكن النّبتة في ذبول مستمرّ منذ أن استولتْ عليها.

خمّنت أنّ النّبات يحبّ أهله،وأنّ هذه النّبتة تفتقد صاحبة البيت المقدسّية التي زرعتها واعتنت بها،زمّت الحوض الصّغير،وهبطت به أدراج البيت،فألفت المرأة المقدسيّة في فسحة الحديقة الصّغيرة تضفّر شعر إحدى بناتها،وضعتْ حوض النّبتة العطريّة أمامها،وقالتْ لها بلهجة فلسطينيّة تكاد تتقنها:»هذه النّبتة تريدكِ».

ردّت المرأة المقدسيّة دون أن تلتفت إليها:»هذا طبيعيّ،فالشّجر يعرف أهله،ويرفض الغرباء».

طالب

يجب أن يكون سرّ معلّمه،وهذه فرصته الكبرى ليكون تلميذه المخلص السّائر على دربه،هو من علّمه أنّ البحث العلميّ والتّعليم الميدانيّ غايتان تستبيحان الوسائل جميعها أكانت إنسانيّة أم وحشيّة،وهما المقدّمتان على أيّ أخلاقيّات أو أدبيّات،ولذلك كان يستسيغ أن يشرّح أمامهم جسد أسير فلسطينيّ وهو على قيد الحياة؛لأنّه يريد أن يريهم كيف تعمل الأعضاء الحيويّة وصاحبها على قيد الحياة.

لقد أُغمي عليه عندما حضر الدّرس الأوّل من هذه الدّروس الميدانيّة المطبّقة على أجساد الأسرى الفلسطينيين،ولم يحضر منه إلاّ توغّل المشرط في صدر الأسير وصراخه الذي يمزّق أوتاره الصّوتيّة لشدّة ألمه،بعدها دخل في عالم من الغيبوبة اللّزجة القاتمة إلى أن أيقظه معلّمه الطّبيب الصّهيونيّ بصفعة خلعت سناً من أسنانه.

لم يغمَ عليه أبداً بعد هذه الصّفعة،وظلّ يتابع مشرط معلّمه الطّبيب يعيث فساداً وتعذيباً في أجساد الأسرى الفلسطينيين،وما عاد بعدها يعبأ بألم بشر،وتمنّى دائماً أن يلهو مشرطه في جسد معلّمه ليثبت له أنّ الطّالب قد يفوق معلّمه في الفعل الإبليسيّ.

الآن سيحقّق اللّهو الذي يحلم به،فقد جاءته الفرصة المنتظرة على طبق من ذهب؛معلّمه أمامه مشلول الحركة والنّطق،ويعاني من مرض نادر يستحقّ الاكتشاف،وهو المسؤول عنه في هذه المستشفى،لذلك يستطيع أن يُعْمِل مشرطه فيه دون أن ينبس ببنت شفة أو يُطْلق زفرة احتجاج حتى لو قدّده الألم،لن يضيّع هذه الفرصة أبداً،يغلق باب الحجرة بالمفتاح،يضع المفتاح في جيبه الذي يُخرج منه مبضعه،ويشرع يسيّره في جسد معلّمه ابتداء من رقبته حيث تتبدّى الحنجرة نزولاً مثلّماً حتى أسفل بطنه.

أوزون

اجتمعوا جميعاً،وشكروا الله لأنّه خلق الفلسطينيين ليكونوا كبش الفداء في المصائب والمحن والشّدائد جميعها.في جلسة واحدة أسندوا لهم الجرائر كلّها:فهم من أفسدوا العالم،وسرقوا الخزائن العامرة،وحاربوا الآمنين،وبثّوا الأمراض والأحزان والمآسي والنّكبات في الأرض،وأشعلوا نيران الحروب العالميّة الماضية والآنيّة والمستقبليّة،وهم سبب المنازعات والتّناحر في كلّ مكان،بل هم من اخترعوا الموت،وقدّروه على البشر،لذلك وجب عليهم أن يُعذّبوا،وأن يقتّلوا،وأن يُشرّدوا.

في آخر قائمة الجرائم المسندة للفلسطينيين،الأحياء منهم والأموات والذين لا يزالون عدماً في غامض الغيب،وجدوا أنّهم لم يستطيعوا أن يفسّروا سبب حدوث خرق الأوزون الذي سيكلّف البشريّة عناء لا حدّ له.

ابتسم أقصر الموجودين في هذه القمة الكونيّة لأجل إسناد جرائم الكون إلى الفلسطينيين،كان يلبس طاقيّة سوداء جوفاء نتنة تخيم على نافوخ رأسه،وقال بفرح وارتياح يسمح لكرشه بأن يتمطّى بتهدّل:»هذه جريمة سهلة وبسيطة،لا بدّ أنّ الفلسطينيين هم من خرقوا طبقة الأوزون في لحظة تهوّر».

هلّل المجتمعون فرحاً وارتياحاً بهذا الاقتراح،وصوّتوا جميعاً على الموافقة على إسناد هذه التّهمة البيئيّة الخطيرة- إن وقعت حقيقية- للفلسطينيين المشاكسين الذين يفسدون كلّ ما تمتدّ أيديهم إليه،حتى أنّ عبثهم قد امتد إلى طبقة الأوزون المسكينة،فقاموا بثقبها.

٧

تقاسيم البعث

تمثال

الفلسطينيّ الأوّل الذي خلقه الله في مبتدئ تاريخ البشريّة كان مثّالاً ماهراً، يصنع تماثيله على شاكلة جمال وطنه.

في يوم وليلة جاء غاصب يهودي، وسرق وطنه، وحطّم تماثيله، وطرده منها مع بنيه الكُثر الذين كانوا جميعاً مثّالين مهرة مثله.

الفلسطينيّ الأوّل الموغل في القدم جاب الدّنيا في انتظار العودة إلى وطنه، أبناؤه وبناته تفرّقوا في مشارق الأرض ومغاربها، جميعهم دأبوا على صنع تماثيل تشبه وطنهم فلسطين، ثم بعد ذلك طفقوا يبنون الأماكن كلّها على شاكلة فلسطين كي لا ينسوها أبداً، ولذلك نقلوها إلى كلّ مكان ذهبوا إليه.

بعد زمن طويل عاد الفلسطينيّ الأوّل وبنوه إلى وطنهم فلسطين بعد أن طردوا اليهودي الغاصب منه، ولكن ظلّ من عادة الفلسطينيّ أن يعمّر الأرض ويبني الأماكن والبلدان على شاكلة وطنه إلى أن يعود إليه في آخر المطاف، وبات تاريخ الفلسطينيّ يُختزل في الرّحيل والبناء والعودة إلى الوطن مهما طال التّطواف.

الرّيح والكلاب

استطاعوا أن يقتلوا عـدداً عملاقاً من الفلسطينيين، مثّلوا بأجسادهم، أحرقوا جماجمهم، طحنوا عظامهم، نثروا رمادهم في مهبّ الرّيح كي يرتاحوا من ذلك الشّبح الذي اسمه عودة الشّعب الفلسطينيّ إلى وطنه.

علت أصواتهم نابحة بنشوة داعرة وهم يقولون: »نحن إسرائيل، والفلسطينيون غدوا عدماً«.

سخرت الرّيح من نباحهم الأجشّ، ولملمت رمـاد الفلسطينيين الـذي بعثرته نسائمها، وعجنته بماء الخلود، ونفخت فيه، فبُعث الفلسطينيون مرّة أخرى ينسلون من

طائر فينيق لا يموت أبداً،كانوا جميعاً يحملون ابتسامة عريضة واحدة يلوّحون بها للرّيح العاتية الباعثة لهم؛لأنّها لا تصدّق نباح الكلاب مهما علا!

المنجل

هبط الفلسطينيّ على الأرض يحمل منجلاً،ولا شيء أكثر،لم يعشق منجله إلاّ الأرض التي يحصد كنوزها بشهوة وارتضاء.

جاء الغرباء ليسرقوا الأرض من المنجل المتيّم بها،فعشق الدّم يسقيه لنفسه من دماء أعناقهم التي يحصدها بكره وقرف.

وبعد أن رحل الغرباء النّاجون من سطوة منجل الفلسطينيّ،عاد المنجل من جديد يتفرّغ لعشق الأرض،ويغنّي في أيدي الزّراع العاشقين.

وحام

سرقوها،شرّدوا أهلها،أسموها إسرائيل،فحملت الأرض من فؤوس من شّقوها لآلاف السّنين ليزرعوها،توّحمتْ بهم،بملامحهم،بأصواتهم،بروائحهم،بصبرهم،بأحلامهم،وأنجبتْ فدائيين فلسطينيين بملامح أمّهم فلسطين،ومن جديد عاد اسمها فلسطين،وظلت تحبل وتتوّحم،وتلد فدائيين يهتفون باسمها السّماويّ الخالد.

القيامة

ينُفخ في الصّور نفخة ثانية،فيبُعث البشر أجمعون كرهاً وطوعاً،البشر في محشر عظيم،الجميع يحملون أعمالهم فوق أعناقهم،إلاّ الفلسطينيين فإنّهم يحملون فلسطين على رؤوسهم،يقفون بها أمام الرّب ليتشفّعوا بها لهم وللأهلين ولكلّ من ضحّى لأجلها.

انتهت المجموعة القصصيّة

كُتبتْ في الشّتات...

د. سناء شعلان (بنت نعيمة)

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، وكاتبة سيناريو، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو ٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلمي والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٧٠ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحي مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تُنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربي والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة والفكريّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعي حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربي والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١- أعشقني.

٢- السّقوط في الشّمس.

٣ - أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١- أصدقاء ديمة.

٣- المجموعات القصصيّة:

١- قافلة العطش.

٢- تراتيل الماء.

٣- الجدار الزّجاجيّ

٤- حدث ذات جدار.

٥- الذي سرق نجمة.

٦- تقاسيم الفلسطينيّ

٧- عام النّمل.

٨- رسالة إلى الإله.

٩- أرض الحكايا.

١٠- مقامات الاحتراق.

١١- ناسك الصومعة.

١٢- قافلة العطش.

١٣- الكابوس.

١٤- الهروب إلى آخر الدّنيا.
١٥- مذكّرات رضيعة.
١٦- أكاذيب النّساء.
١٧- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١
١٨- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢
١٩- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:
١- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان «القصّة في الأردن: نصوص ودراسات».
٢- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان «الضّياع في عيني رجل الجبل».
٣- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان «في العشق».
٤- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان «مختارات من القصّة الأردنيّة».
٥- مجموعة قصصية مشتركة مع قاصّين مصريين بعنوان «مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع».

٥- مسرحيّات للكبار:
١- إعداد وسنيوغرافيا لمسرحيّة «صانعة» المقتبسة عن مسرحيّة (البيت النّظيف) للأمريكيّة سارة رول.
٢- دعوة على شرف اللّون الأحمر.
٣- «سيلفي» مع البحر.
٤- وجه واحد لاثنين ماطرين.
٥- محاكمة الاسم (×).

٦- السّلطان لا ينام.

٧- خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١- اليوم يأتي العيد.

٢- رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١- قصّة للأطفال بعنوان «زرياب: معلّم الناس والمروءة».

٢- قصّة للأطفال بعنوان «هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد».

٣- قصّة للأطفال بعنوان «الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربي».

٤- قصّة للأطفال بعنوان «ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة».

٥- قصّة للأطفال بعنوان «اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق».

٦- قصّة للأطفال بعنوان «العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك».

٧- قصّة للأطفال بعنوان «عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس».

٨- قصّة للأطفال بعنوان «زرياب: معلّم النّاس والمروءة».

٩- قصّة للأطفال بعنوان «صاحب القلب الذّهبي».

١٠- مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلاّت الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١- أبي سيّد الكلمات.

٢- الذين لا ينامون.

٣- قالت النّساء.

٤- غصون وتخوم.

٥- الدّرب إليهم.

٦- الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ - لقاءات حواريّة:

١- الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)

٢- العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)

٣- لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ - كتب نقديّة متخصّصة:

١- الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.

٢- السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠- ٢٠٠٢م

٣- دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.

٤- الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.

٥- السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في الأدب المعاصر.

٦- ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات نقديّة في إبداعات معاصرة.

٧- So Close, Much Farther: Studies in Criticism

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١- المشاركة بفصل بعنوان «السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح» في كتاب بعنوان «حنون مجيد في منجزه القصصي»، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.

٢- مشاركة بفصل بعنوان «لقاء مع العلامة علي القاسمي: أبو المعاجم العربية الحديثة» في كتاب «الدّكتور علي القاسمي سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين»، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣- المشاركة بفصل بعنوان «عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع» في كتاب «عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً».

٤- المشاركة بفصل بعنوان «مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقي فرج ياسين في مجموعته القصصيّة «واجهات برّاقة» في كتاب» في آفاق النّص القصصي: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين».

٥- المشاركة بفصل بعنوان «البطل في قصص زياد أبو لبن» في كتاب «القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن».

٦- المشاركة بفصل بعنوان «الذين لا يموتون» في كتاب «المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه».

٧- المشاركة بفصل بعنوان «الفنتازيا رداء للتّنوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة» في كتاب نقديّ بعنوان «نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعي».

٨- المشاركة بفصل بعنوان «شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان» في كتاب «دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ».

١٢- الكتب المنهجيّة:

١- كتاب بعنوان «تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس»، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

هبط الفلسطينىّ على الأرض يحمل منجلاً، ولا شىء أكثر، لم يعشق منجله إلاّ الأرض التى يحصد كنوزها بشهوةٍ وارتضاء.

جاء الغرباء ليسرقوا الأرض من المنجل المتـيّم بهـا، فعشـق الدّم يسقيه لنفسه من دماء أعناقهم التى يحصدها بكره وقرف.

وبعد أن رحل الغرباء النّاجون من سـطوةِ منجـل الفلسـطينىّ، عاد المنجل من جديد يتفرّغ لعشق الأرض، ويغنّـى فـى أيـدى الزّراع العاشقين.

انتشارات عـمـار